أجاثا كريستي

بيت العَنْدَليب

دار النجمة للنشر والتوزيع

بيت العَنْدَليب
وقصص أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

بيت العَنْدَليب
وقصص أخرى

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

بيت العندليب

-١-

- إلى اللقاء أيها الحبيب.

- إلى اللقاء أيتها الحبيبة.

وأسندت أليكس مارتن كتفها إلى الباب ووقفت تراقب زوجها وهو يبتعد في الطريق إلى القرية. وما لبث الزوج أن انحرف في أحد المنحنيات وغاب عن بصرها، لكنها ظلت مع ذلك في مكانها، في نفس الوضع تنظر أمامها بعينين حالمتين، وتعالج بأناملها وهي شاردة الذهن خصلة من الشعر عبث بها النسيم فتلاعبت على وجهها.

لم تكن أليكس مارتن بارعة الجمال، بل إنها لم تكن جميلة على الإطلاق. ولكن وجهها، وهو وجه امرأة تجاوزت سن الشباب منذ سنوات عديدة، كانت تعلوه مسحة من الهدوء والدعة لم يعهدها زملاؤها في المكتب الذي كانت تعمل به قبل زواجها، حيث كانت تمثل الموظفة النحيلة الجسم الصارمة الوجه ذات العقل المرتب والكفاءة العالية والتصرفات التي تتسم أحياناً بالغلظة والجفاء.

❊ ❊ ❊

كانت أليكس قد تعلمت في مدرسة الحياة وشقت طريقها في أوعر السبل، وظلت خمسة عشر عاماً، من الثامنة عشرة حتى الثالثة والثلاثين من عمرها، تكسب قوتها وقوت أمها المريضة من عملها ككاتبة اختزال. كان كفاحها من أجل البقاء هو ما أكسب قسمات وجهها تلك الصلابة التي عرفت عنها قبل أن تتزوج. لقد عرفت أليكس الحب في وقت ما، وكان الطرف الآخر زميلاً لها في المكتب يدعى ديك وندفورد، وعرفت بغريزة المرأة أن ديك يحبها ولكنها تظاهرت بأنها لا تعرف، وهكذا ظلا في الظاهر مجرد زميلين وصديقين.

كان ديك يتقاضى راتباً صغيراً وكان عليه أن يضطلع بنفقات تعليم أخيه الصغير، فكان التفكير في الزواج في هذه الظروف يعد ضرباً من الجنون. ثم جاءت النجدة فجأة وتخلصت الفتاة من الأحاسيس التي كانت تطحنها وهي تكد طول يومها من أجل لقمة العيش. جاءتها النجدة من حيث لا تدري، فقد ماتت إحدى قريباتها وتركت لها ثروة تقدر ببضعة آلاف من الجنيهات ويربى ريعها على المئتين من الجنيهات في العام. كان هذا الميراث الصغير بالنسبة إليها يعني الحرية والحياة والاستقرار، ويعني أنها وديك لم يعودا بحاجة إلى الانتظار أكثر مما انتظرا.

ولكن رد الفعل عند ديك كان غير ما توقعت. لم يكن قد باح لها بحبه بطريقة مباشرة ولم يقل لها قط إنه مولع بها، فلما آلت إليها تلك الثروة بدا وكأنه لن يفعل ذلك أبداً، فقد راح يتجنبها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وازداد وجوماً وانطواء

على نفسه، وسرعان ما عرفت أليكس الحقيقة وفطنت إلى السبب، السبب أنها أصبحت ذات ثروة وإيراد خاص وأن كبرياء ديك واعتداده بنفسه يمنعانه من طلب يدها. ولم يزدها ذلك إلاّ إعجاباً به وإكباراً له، حتى إنها فكرت جدياً في أن تخطو هي الخطوة الأولى، وما همّت بأن تفعل ذلك حتى دخل جيرالد مارتن حياتها فجأة وعلى غير انتظار.

كانت قد قابلته في منزل صديقة لها فأحبها من أول نظرة حباً عنيفاً، ولم يمض أسبوع حتى طلب يدها. لم تكن أليكس تعد نفسها من الفتيات اللاتي ينسقن مع تيار الحب في غير روية، ولكنها وجدت بغتة أن الحب قد جرفها فعلاً من أول لحظة وقع فيها بصرها على جيرالد، ولم يخطر لها ببال أن هذا الحب الجارف وهذه الخطوبة السريعة ستثيران غيرة ديك وندفورد على نحو ما حدث، فقد جاءها ذات يوم وهو يتميز حنقاً وغضباً وقال لها فيما قال: ولكن هذا الرجل غريب عنك تماماً وأنت لا تعرفين شيئاً عنه.

فأجابت: كل ما أعرفه أنني أحبه وأنه يحبني.

- هل أنت واثقة من ذلك؟ أنت لم تقابليه إلاّ منذ أسبوع واحد.

فصاحت في غضب: ليس كل رجل بحاجة إلى أحد عشر عاماً لكي يعرف أنه يحب فتاته.

ففر لونه من وجهه وأجاب: لقد أحببتك منذ أن وقع بصري عليك وكنت أظن أنك تحبينني.

فقالت في صدق: ذلك ما ظننته أنا أيضاً، ربما لأنني لم أكن أعرف ما هو الحب.

وهنا انفجر ديك مرة أخرى، فهاج وماج وأرغى وأزبد وهدد وتوعد، ثم لجأ إلى الرجاء والتوسل، فلما ذهبت توسلاته سدى عاد إلى التهديد بقتل الرجل الذي انتزعه من قلبها واستأثر بحبها.

ودهشت أليكس، أدهشها أن ترى ذلك البركان الثائر في أعماق هذا الرجل الهادئ الرصين الذي كانت تعتقد أنها تعرفه تمام المعرفة!

* * *

تذكرت هذا اللقاء العاصف بينها وبين ديك وهي واقفة بباب المنزل بعد أن شيعت زوجها ببصرها حتى اختفى. كانت قد تزوجت منذ شهر وسعيدة إلى أقصى حدود السعادة، لكن هذه السعادة كان يشوبها دائماً شيء من القلق كلما غاب عنها زوجها الذي أصبح كل شيء في حياتها. كان مصدر هذا القلق هو ديك وندفورد. لقد رأت نفس الحلم ثلاث مرات منذ زواجها، وفي كل مرة كان المكان يختلف ولكن الحقائق لا تتغير. كانت ترى فيما يرى النائم أن زوجها ملقى على الأرض جثة هامدة وأن ديك واقف بجواره، وأنها تعلم عن يقين أن يد ديك هي اليد التي صرعت زوجها!

حلم مزعج، ولكن ما كان يزعجها أكثر حينما تستيقظ هو

المشهد الأخير في الحلم، فهي في هذا المشهد تبدي ارتياحها لموت زوجها وتمد يدها إلى قاتله شاكرة ومهنئة، وينتهي بها المشهد وهي بين ذراعي ديك وندفورد.

* * *

-٢-

لم تذكر أليكس لزوجها شيئاً عن هذا الحلم، ولكن الحلم أزعجها أكثر مما ينبغي فراحت تسائل نفسها: هل هو إنذار؟ هل هو تحذير من ديك وندفورد؟ وانتبهت أليكس من تأملاتها على رنين جرس الهاتف داخل المنزل فأسرعت إليه وتناولت السماعة، ولكنها ما كادت تسمع صوت المتكلم حتى ترنحت وأسندت يدها إلى الجدار لكي تحفظ توازنها. هتفت متسائلة: من؟

- ماذا حدث لصوتك يا أليكس؟ كدت ألا أعرفه، أنا ديك.

- آه! أين... أين أنت الآن؟

- إنني أتكلم من حانة السائح، أظن أن هذا هو اسمها، حانة السائح. أم لعلك لا تعرفين أن في قريتك حانة بهذا الاسم؟ إنني الآن في إجازة أقضيها في صيد السمك، هل ثمة مانع من أن أزوركما الليلة بعد العشاء؟

فأجابت بحدة: كلا، لا يجب أن تأتي.

ساد الصمت قليلاً، ثم جاء صوت ديك وقد تغير تغيراً

واضحاً: أرجو المعذرة، فما أردت مضايقتكما. لقد...

فقاطعته أليكس بسرعة، فلا بد أنه قد وجد في جوابها شيئاً من الشذوذ، لقد كان جواباً شاذاً بالفعل. قالت بصوت حاولت أن تجعله يبدو طبيعياً: إنما أردت أن أقول إننا على موعد مع بعض الأصدقاء الليلة. هل لك في تناول طعام العشاء معنا غداً؟

ومع أن ديك لاحظ ما في صوتها من فتور فقد رد في هدوء وبنفس الأسلوب المهذب: شكراً جزيلاً، ولكني أتوقع الرحيل بين لحظة وأخرى، فالأمر يتوقف على صديق لي قد يأتي وقد لا يأتي. إلى اللقاء يا أليكس.

وبعد صمت قصير أردف قائلاً بصوت مختلف تماماً: أتمنى لك كل التوفيق أيتها العزيزة.

فوضعت أليكس السماعة وتنهدت بارتياح، وقالت تحدث نفسها: لا يجب أن يأتي إلى هنا. نعم، لا يجب أن يأتي إلى هنا. ولكن ماذا دهاني وما سبب الاضطراب الذي أصابني؟ على كل حال أنا سعيدة لأنه لن يأتي.

قالت ذلك وتناولت قبعة عريضة كانت على المائدة وخرجت إلى الحديقة، ولكنها توقفت عند الباب وألقت نظرت على الاسم المنقوش فوقه: «بيت العندليب».

لقد قالت لجيرالد ذات مرة قبل زواجهما: ألا ترى أنه اسم عجيب؟ فضحك وقال: أراهن أنك لم تسمعي قط عندليباً

يغرد، وأنا مسرور لذلك فإن العندليب لا يغرد إلاّ للعشاق، ولسوف نسمعه حين يغرد في أمسيات الصيف.

تذكرت أليكس كيف أنهما سمعاه فعلاً، واحمرّ وجهها سعادة وهي تنظر إلى الاسم المنقوش فوق باب الكوخ.

* * *

كان جيرالد هو الذي وجد الكوخ، وقد جاءها ذات يوم وهو يكاد يطير فرحاً وقال لها إنه قد وجد بيت الأحلام، المنزل الذي يخيل إليه أنه شيد من أجلهما. إنه تحفة نادرة، بل هو فرصة العمر!

وحينما ذهبت أليكس وتفقدته فتنت به على الفور واعترفت بأن جيرالد لم يبالغ في وصف جماله ومزاياه. صحيح أنه يقع في بقعة منعزلة تبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن أقرب قرية، إلاّ أنه رائع بطرازه القديم ومرافقه الحديثة، فهو مزود بالماء الساخن والكهرباء والتليفون وفيه حمام فسيح لم ترَ أليكس أفسح ولا أجمل منه.

فُتنت أليكس بالمنزل وأحبته حين رأته، ولكن كانت هناك عقبة. إن صاحبه شخص غني غريب الأطوار، ولم يكن يرد تأجيره ولكنه كان على استعداد لبيعه! وكان جيرالد يملك إيراداً لا بأس به ولكن لم يكن في استطاعته التصرف في رأس المال. كان كل ما يستطيع تدبيره هو ألف جنيه في حين أن صاحب المنزل يطلب ثمناً له ثلاثة آلاف من الجنيهات! وهنا

تقدمت أليكس لنجدة جيرالد.

كان المنزل قد استهواها فصممت على الإقامة فيه. كانت ثروتها عبارة عن سندات تدفع قيمتها لحامله ويمكن التصرف فيها بسهولة، فقررت الإسهام بنصف ثمن المنزل، وهكذا أصبح المنزل ملكاً لهما. ولم تندم أليكس في أية لحظة على إبرام هذه الصفقة. صحيح أن الخدم كانوا يرفضون العمل في هذا المنزل الريفي البعيد عن العمران، ولكن ذلك لم يزعج أليكس كثيراً أو قليلاً لأنها كانت تتوق إلى الحياة العائلية وتجد متعة كبيرة في طهو الطعام وتدبير شؤون المنزل. أما العمل في الحديقة الفسيحة المليئة بالزهور فقد كان يقوم به بستاني عجوز من أهل القرية مرتين في الأسبوع.

❋ ❋ ❋

ابتعدت أليكس عن باب المنزل وتوغلت في الحديقة، وأدهشها أن ترى البستاني العجوز يعمل في حقل الورود، ذلك لأن البستاني تعوّد الإشراف على الحديقة في يومي الإثنين والجمعة من كل أسبوع، وكان ذلك اليوم هو يوم الأربعاء. سألته وهي تدنو منه: ماذا تفعل هنا يا جورج؟

فاعتدل البستاني واقفاً وقال وهو يمس طرف قبعته البالية على سبيل التحية: كنت أتوقع أنك ستدهشين يا سيدتي، ولكن الأمر حدث على هذا النحو. إن صاحب مزرعة سكواير سيقيم حفلاً في قصره يوم الجمعة ولذلك قلت لنفسي إنه لن يضير السيد مارتن أو يضيرك أن أعمل هنا يوم الأربعاء بدلاً

من يوم الجمعة.

قالت أليكس: طبعاً، طبعاً، وأرجو أن تقضي وقتاً طيباً في حفلة صاحب المزرعة.

قال جورج ببساطة: هذا ما أرجوه أيضاً يا سيدتي، فليس هنا شيء أفضل من أن يأكل الإنسان كفايته دون أن يدفع ثمن طعامه. لقد دعا صاحب المزرعة جميع عماله وأنا منهم لتناول الغداء على مائدته، لذلك خطر لي أن أراك قبل رحيلك للتعرف على رغباتك بشأن سور الحديقة، خاصة وأنك لا تعرفين متى ستعودين، أليس كذلك؟

- ولكني لن أرحل يا جورج!

فحملق البستاني نحوها في دهشة وقال: ألا تعتزمين السفر إلى لندن غداً؟

- لا، من أوحى إليك بهذه الفكرة؟

فحك جورج رأسه في حيرة وأجاب: لقد قابلت السيد مارتن في القرية أمس فقال لي إنكما ستسافران إلى لندن غداً وإنه لا يعرف متى ستعودان.

فضحكت أليكس وردت: هراء، لا بد أنك أسأت الفهم.

لكنها مع ذلك شعرت بمزيج من الدهشة والحيرة، وتساءلت: ترى ماذا قال جيرالد للبستاني العجوز لكي يقع

البستاني في هذا الخطأ العجيب؟ نسافر إلى لندن؟ إنها لم تفكر قط في العودة إلى لندن مرة أخرى. قالت بإصرار وبصوت أجش: إنني أكره لندن!

قال البستاني في هدوء: آه، لا بد أنني أسأت الفهم. ولكن يخيل إليّ أنه قال ذلك بوضوح. ومهما يكن من أمر فإنني سعيد بوجودكما هنا، أنا أيضاً لا أحب لندن ولا أريد الذهاب إليها، إنها مليئة بالسيارات، وتلك هي الكارثة، فإن الإنسان لا يكاد يمتلك سيارة حتى يصاب بجنون السفر والترحال فلا يقر له قرار. لقد كان السيد إيمز صاحب هذا المنزل رجلاً هادئاً وديعاً إلى أن ابتاع سيارة، فلم ينقضِ شهر واحد حتى عرض المنزل للبيع رغم الأموال الطائلة التي أنفقها في إصلاحه وتزويده بالكهرباء، وقد قلت له ذات مرة: "لن تسترد شيئاً من النقود التي أنفقتها"، ولكنه أجاب: "سوف أسترد كل بنس أنفقته ولن أبيع المنزل بأقل من ألفي جنيه". وهذا ما حدث تماماً.

قالت أليكس وهي تبتسم: لقد باعه بثلاثة آلاف من الجنيهات.

قال جورج: بل بألفين، هذا هو الثمن الذي كان يطلبه والناس جميعاً يعلمون ذلك.

- لكنه باعه بثلاثة آلاف!

- إن النساء لا يعرفن الأرقام جيداً، وأنا لا أصدق أن

السيد إيمز كان من الوقاحة بحيث يطلب منك ثلاثة آلاف جنيه.

قالت أليكس: هو لم يطلب ذلك مني، وإنما طلبه من زوجي!

قال جورج بإصرار وهو يعود إلى عمله: كان الثمن ألفي جنيه يا سيدتي.

* * *

-٣-

ولم تكلف أليكس نفسها عناء الاسترسال في مناقشة البستاني، ومضت إلى أحد أركان الحديقة حيث اقتطفت بعض الزهور. وحين استدارت لتعود إلى المنزل وقع بصرها على شيء أسود صغير ملقى بين أوراق الشجر، فانحنت والتقطته، وعرفت فيه على الفور الدفتر الصغير الذي يسجل فيه زوجها مذكراته. فتحته وتأملت في صفحاته بشيء من الفضول.

لقد عرفت عن جيرالد منذ بداية حياتهما الزوجية شدة حرصه على الدقة والنظام والنظافة، فهو يصر دائماً على تناول الطعام في نفس الموعد ويحرص على وضع برنامج يومه بدقة تامة ويحدد أوقات عمله وتنقلاته بالساعة والدقيقة. ولم تتمالك أليكس من الابتسام حين قرأت ما سجله زوجها في دفتر مذكراته بتاريخ ١٤ مايو. قرأت: "الزواج من أليكس بكنيسة سانت بيتر في الساعة الثانية والنصف". ابتسمت وقالت لنفسها: يا للأحمق الكبير!

ومضت تتصفح أوراق الدفتر ثم توقفت فجأة وهمست: الأربعاء ١٨ يونيو... أي اليوم! وجدت تحت هذا التاريخ سطراً واحداً بخط جيرالد الدقيق تضمنت هذه الكلمات: «الساعة التاسعة مساء»، ولا شيء غير ذلك.

تساءلت أليكس: ترى ماذا كان في نية جيرالد أن يفعل في الساعة التاسعة مساء؟ ابتسمت وقالت لنفسها: لو أن هذه القصة من القصص التي تقرأها عادة لكشفت لها هذه المذكرات بعض الحقائق المثيرة ولوجدت في هذه الصفحة اسم امرأة أخرى. مضت تتصفح أوراق الدفتر بقلة اكتراث ووجدت فيها تواريخ مختلفة ومقابلات وإشارات إلى صفقات عمل، ولم تقع إلاّ على اسم واحد، هو اسمها! ورغم ذلك فإنها أحست بقلق غامض وهي تضع الدفتر في جيبها وتواصل السير إلى المنزل.

تذكرت كلام ديك وندفورد حين قال لها: "إن هذا الرجل غريب عنك تماماً وأنت لا تعرفين شيئاً عنه". رنّت هذه الكلمات في أذنيها كما لو كان ديك وندفورد يسير بجوارها وينطق بها. لقد صدق ديك، إذن فالواقع أنها لا تعرف شيئاً عن جيرالد. إن جيرالد في الأربعين من عمره ولا يمكن أن تكون حياته خلال هذه الأربعين سنة قد خلت من النساء!

* * *

وهزّت أليكس رأسها في ضجر. لا ينبغي أن تسمح لمثل هذه الأفكار بأن تلح عليها، فهناك أشياء أخرى أجدر باهتمامها، ومنها على سبيل المثال موضوع ديك وندفورد وهل ينبغي أن تصارح زوجها بأنه تحدث تليفونياً أو لا ينبغي؟ إن هناك احتمالاً لا يجب أن تسقطه من حسابها، هو أن يكون جيرالد قد قابل ديك مصادفة في القرية. ولكن إذا حدث ذلك

فمن المؤكد أن جيرالد سيخبرها حالما يعود، وحينئذٍ يخرج الأمر من يدها. أما إذا لم يحدث... أحست أليكس برغبة واضحة بألا تذكر لزوجها شيئاً عن ديك وندفورد. كانت واثقة من أنها إذا فعلت ذلك فإن جيرالد سوف يقترح دعوة ديك لزيارتهما، وسيكون لزاماً عليها في هذه الحالة أن تصارحه بأن ديك قد طلب بنفسه هذه الزيارة وأنها انتحلت عذراً لمنعه، ولكن ماذا تقول له إذا سألها لماذا فعلت ذلك؟ هل تحدثه عن ذلك الحلم؟ إذا حدثته عن الحلم فإنه قد يضحك، وأسوأ من ذلك أنه قد يعيب عليها اهتمامها بهذه التفاهات!

وفي النهاية قررت ألا تقول شيئاً. كان ذلك أول سر تكتمه عن زوجها وقد أورثها ذلك إحساساً بالضيق والقلق.

* * *

-٤-

عاد جيرالد من القرية قبل موعد تناول الغداء، وما أن سمعت أليكس وقع أقدامه حتى هرولت إلى المطبخ وتظاهرت بالانهماك في طهي الطعام لتخفي ارتباكها، وقد وضح لها على الأثر أن جيرالد لم يقابل ديك في القرية، وشعرت مع ذلك بمزيج من الارتياح والهم، فقد أصبح من الضروري أن تلتزم بالكتمان وتحرص على ألا تفلت منها كلمة تشير إلى حديث ديك التليفوني. ونسيت أليكس كل شيء عن دفتر مذكرات زوجها فلم تتذكره إلاّ بعد أن تناولا العشاء وجلسا في غرفة المعيشة وفتحا نوافذها ليستقبلا نسمات الليل المعطرة بشذا زهور الحديقة.

قالت لزوجها: هذا شيء نسيته في الحديقة.

وألقت إليه بالدفتر، فرد عليها: لا بد أنه قد سقط مني.

- نعم، وأنا الآن أعرف كل أسرارك.

فابتسم وقال: ليس فيها ما يدينني.

- هل أنت الليلة على موعد في الساعة التاسعة؟

- على موعد؟

دُهش، وكان السؤال مباغتاً، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وابتسم وأجاب: نعم، أنا على موعد مع فتاة تشبهك كثيراً.

فقالت بشيء من الصرامة: لا أفهمك، إنك تتهرب من الإجابة.

- لا، الواقع أنني قد سجلت هذا الموعد ليذكرني ببعض صور يجب أن أقوم بتحميضها وأريدك أن تساعديني في هذه المهمة.

كان جيرالد مارتن من هواة التصوير ولديه آلة تصوير قديمة ولكن عدستها جيدة، وقد تعود أن يقوم بنفسه بتحميض الصور التي يلتقطها في غرفة صغيرة في القبو، وقد أعدها خصيصاً لهذا الغرض.

قالت أليكس تعاتبه: وهل يجب تحميض هذه الصور في الساعة التاسعة تماماً؟

فأجاب في شيء من الضيق: يا فتاتي العزيزة! إن الإنسان يجب أن يحدد وقتاً لكل عمل ولكل مرحلة من مراحل نشاطه حتى تنتظم أعماله وحياته.

فلاذت أليكس بالصمت لحظة وراحت تراقب زوجها وهو يدخن في هدوء وقد استرخى في مقعده وأسند رأسه إلى ظهر المقعد. فجأة غمرتها موجة من الذعر لا تعرف مصدرها، فصاحت قبل أن تتمكن من السيطرة على مشاعرها: أواه يا

جيرالد! كم أتمنى أن أعرف المزيد عنك.

فتحول إليها بوجه تعلوه الدهشة وقال: ولكنك تعرفين كل شيء عني أيتها العزيزة. لقد حدثتك عن طفولتي في نورثمبرلند، وعن حياتي في أفريقيا الجنوبية والسنوات العشر التي قضيتها في كندا، وقد حالفني فيها النجاح والتوفيق.

فقالت بازدراء: لا تحدثني عن أعمالك.

فانفجر جيرالد ضاحكاً فجأة وقال: فهمت، تريدينني أن أتحدث عن مغامراتي الغرامية، إنكن جميعاً سواء أيتها النسوة، لا يهمّكن سوى الأمر الشخصي.

فأحست أليكس بجفاف في حلقها ولم تلبث أن تمتمت قائلة: ولكن لا بد أن تكون في حياتك بعض المغامرات الغرامية. ليتني فقط أستطيع أن... ولم تتم عبارتها، وساد الصمت مرة أخرى.

قطب جيرالد ما بين حاجبيه، وقال بعد تردد بصوت فيه جدية لم تعهدها زوجته: هل ترين من الحكمة أن أحدثك عن غرامياتي يا أليكس؟ لا أنكر أنني قد عرفت بعض النساء لأنني إذا أنكرت فإنك لن تصدقيني، ولكن أستطيع أن أقسم لك وبصدق أنني لم أعبأ بأية واحدة منهن ولم تسكن إحداهن قلبي!

كان في صوته نبرة صدق وإخلاص طمأنت زوجته وأراحتها. ونظر إليها جيرالد وسألها وعلى شفتيه ابتسامة:

هل اقتنعت الآن يا أليكس؟ ورمقها في فضول واستطراد: ماذا حملك على التفكير في هذه الموضوعات غير السارة في هذه الليلة بالذات؟

فنهضت أليكس واقفة وراحت تذرع أرض الغرفة في قلق. قالت: لا أعلم، لقد كنت متوترة الأعصاب طول اليوم.

فقال بصوت خافت وكأنه يتحدث إلى نفسه: هذا غريب... غريب جداً.

- ما هو الشيء الغريب؟

- لماذا تتحفزين لمهاجمتي على هذا النحو يا بنيتي العزيزة؟ إنما أردت أن أقول إن سلوككِ يبدو غريباً لأنك في العادة إنسانة وديعة متزنة العقل والتفكير.

فارتسمت على شفتي أليكس ابتسامة مغتصَبة وقالت: لقد خيّل إليّ اليوم أن كل شيء يتآمر لمضايقتي وإزعاجي، حتى البستاني العجوز جورج. لقد سيطرت عليه فكرة مضحكة هي أننا سنرحل إلى لندن. قال لي إنك أنت الذي أنبأته بذلك.

فسألها بحدة: أين قابلته؟

- لقد جاء لمباشرة عمله اليوم بدلاً من يوم الجمعة.

صاح في غضب: تباً للعجوز الأحمق!

فنظرت إليه في دهشة وذهول. كان وجهه متقلصاً حنقاً وغضباً، ولم تذكر أليكس أنها رأته غاضباً على هذا النحو من

قبل. ولاحظ جيرالد دهشتها فحاول السيطرة على مشاعره، قال: إنه عجوز أحمق!

- ولكن ماذا قلت له لكي يتوهم إننا سنرحل؟

- أنا؟ لم أقل له شيئاً. آه، تذكرت الآن، أظن أنني قلت له مازحاً إننا قد نذهب إلى لندن في الصباح، ويبدو أنه قد حمل المزحة على محمل الجد وظن أننا سنرحل إلى لندن حقاً أو أنه لم يسمعني جيداً، ولا شك أنك أقنعته بخطئه، أليس كذلك؟

وانتظر جوابها بقلق فقالت: طبعاً، ولكنه رجل عجوز عنيد، إذا تملكته فكرة تعذر اقتلاعها من ذهنه.

ثم حدثته عن إصرار جورج في موضوع ثمن المنزل، وأصغى إليها جيرالد في صمت ثم قال ببطء: لقد كان السيد إيمز على استعداد لأن يتقاضى ألفين من الجنيهات على أن يرهن المنزل ضماناً للألف الباقية، وأعتقد أن ذلك هو سبب الخطأ الذي وقع فيه جورج.

فقالت أليكس موافقة: ربما. ثم نظرت إلى الساعة المثبتة على الجدار وقالت وهي تشير إليها: أظن أنه ينبغي عليك الآن أن تذهب إلى القبو لتحميض الأفلام وفقاً للموعد الذي حددته، فالساعة الآن التاسعة وخمس دقائق.

فأجاب في هدوء: لقد غيرت رأيي ولن أقوم بتحميض الأفلام الليلة.

-٥-

لا أحد يعلم كيف تفكر المرأة أو كيف يعمل عقلها. فقد أوت أليكس إلى فراشها في تلك الليلة وهي تشعر بالراحة والطمأنينة بعد أن تلاشت الخواطر التي أزعجتها وزلزلت سعادتها، لكن ما أن أقبل مساء اليوم التالي حتى تضافرت بعض القوى الخفية لتعكير صفوها. لم يتصل بها ديك وندفورد مرة أخرى ولكنها أحست بتأثيره من الأفكار التي ألحت عليها. لقد خيّل إليها أكثر من مرة أنها تسمع صوته وهو يقول: "هذا الرجل غريب عنك تماماً وأنت لا تعرفين شيئاً عنه"! ومع هذه الكلمات برزت الصورة التي ارتسمت في ذاكرتها لوجه زوجها حين قال: "هل ترين من الحكمة أن أحدثك عن غرامياتي يا أليكس؟". لماذا قال ذلك؟ لقد كانت كلماته تنطوي على التحذير، بل على التهديد... تماماً كما لو كان قد قال: "خير لك ألا تتدخلي في شؤوني الخاصة يا أليكس وإلاّ أصبت بصدمة شديدة".

ولم يأت صباح يوم الجمعة حتى كانت أليكس قد أقنعت نفسها بأن جيرالد كانت في حياته امرأة أخرى وأنه يحاول إخفاء هذه الحقيقة عنها. ولم تلبث غيرتها التي استيقظت ببطء أن تفاقمت بسرعة. تساءلت: ترى هل كان موعد الساعة التاسعة الذي سجله في دفتر مذكراته هو موعد لقائه

مع امرأة؟ وهل كانت حكاية تحميض الأفلام مجرد كذبة من وحي الخاطر تفتق عنها ذهنه للخروج من المأزق؟ منذ ثلاثة أيام فقط كانت على استعداد لأن تقسم بأنها تعرف زوجها ظاهراً وباطناً، ولكنها الآن تشعر بأنه غريب عنها تماماً وأنها لا تعرف شيئاً عنه! وتذكرت غضبه على جورج العجوز، ذلك الغضب الذي لم يكن له ما يبرره والذي يتعارض تماماً مع سماحته العادية ودماثة خلقه. قد يكون الأمر في ذاته تافهاً ولا أهمية له، ولكنه يدل على أنها لا تعرف الرجل الذي تزوجته معرفة تامة.

كانت بعض الأشياء الصغيرة تتطلب ذهابها إلى القرية لشرائها، فاقترحت على جيرالد أن تنطلق إلى القرية خلال الوقت الذي تعوّد أن يقضيه في الحديقة، ولشد ما كانت دهشتها حين رأته يعارض بقوة ويصر على الذهاب بنفسه إلى القرية بينما تبقى هي في المنزل. ولم يسعها إلاّ الرضوخ، ولكن إصراره أدهشها وأزعجها وجعلها تتساءل: لماذا يحرص على منعها من الذهاب إلى القرية؟ وفجأة لمع في ذهنها الجواب الذي يوضح كل شيء.

ألا يمكن أن يكون جيرالد قد قابل ديك مصادفة في القرية وكتم الأمر عنها؟ حين تزوجت جيرالد لم تكن تغار عليه ثم استيقظت غيرتها فجأة، ألا يمكن أن يكون قد حدث لجيرالد نفس الشيء؟ ألا يمكن أن يكون غرضه هو منعها من مقابلة ديك وندفورد؟ كان هذا التفسير يتفق مع الحقائق ويقضي في ذات الوقت على ما أصابها من حيرة وبلبلة،

فأخذت به واطمأنت إليه.

ثم أزف وقت تناول الشاي، وبمروره انتابها القلق وساورتها الشكوك مرة أخرى. وحاولت آخر الأمر أن تلطف قلقها وتوتر أعصابها بالانهماك في العمل، فأقنعت نفسها بأن المنزل بحاجة إلى التنظيف، وصعدت إلى غرفة زوجها وبيدها منفضة لإزالة الغبار. راحت تقول لنفسها المرة تلو المرة: لو أستطيع فقط أن أتأكد! وعبثاً حاولت أن تقنع نفسها بأن زوجها لا بد أن يكون قد تخلص منذ وقت طويل من أية أدلة تدينه، ولكن هذا الرأي كان يقابله رأي آخر يقول بأن الرجال كثيراً ما يحتفظون -لاعتبارات عاطفية- بأشياء قد تدينهم وتوردهم موارد التهلكة.

وأخيراً استسلمت أليكس للإغراء وشرعت وحمرة الخجل تعلو وجنتيها في فتح أدراج زوجها وفحص محتوياتها من الرسائل والوثائق، بل وفعلت أكثر من ذلك إذ فتحت خزانة زوجها وراحت تبحث في جيوب ثيابه. درجان فقط من أدراج المكتب لم تصل إليهما يدها، لسبب بسيط هو أنهما كانا مقفلين. لكنها كانت قد ضربت بالخجل والحياء عرض الحائط. كانت واثقة من أنها ستجد في أحد هذين الدرجين دليلاً على تلك المرأة الوهمية التي أحبها زوجها فيما مضى والتي أصبحت تنغص حياتها.

تذكرت أن جيرالد قد ترك حزمة مفاتيحه على المدفأة في الطابق الأرضي، فجاءت بها وراحت تجرب المفاتيح

الواحد بعد الآخر، ونجحت أخيراً في فتح أحد الدرجين وأخذت تفحص محتوياته. وجدت به دفتر شيكات ومحفظة مليئة بالأوراق المالية، وفي مؤخرة الدرج وجدت مجموعة من الرسائل محزومة بعناية بخيط من حرير. وتلاحقت أنفاسها بسرعة وهي تحل الخيط وتبسط الرسائل على المكتب، ولم تلبث أن احمر وجهها وأعادت حزم الرسائل ووضعتها حيث كانت. ذلك أنها كانت رسائلها هي، الرسائل التي بعثت بها إلى جيرالد قبل زواجهما.

وتحولت إلى الدرج الثاني. لا لأنها كانت تتوقع أن تجد فيه شيئاً ذا أهمية، وإنما لكي تطمئن إلى أنها لم تترك مكاناً دون تفتيش. وشعرت بضيق شديد حين لم تستطع فتح الدرج بأي من المفاتيح التي تركها جيرالد، لكنها لم تكن على استعداد لقبول الهزيمة، فانطلقت إلى غرف المنزل وعادت بمجموعة من مفاتيح الخزائن والأدراج والأبواب، وتنفست الصعداء حين أدارت مفتاح خزانتها الخاصة في قفل الدرج ففُتح. لكنها لم تجد بالدرج سوى مجموعة من قصاصات الصحف التي تغير لونها بمرور الزمن. وتنفست الصعداء، لكنها لم تجد بأساً من إلقاء نظرة على مضمون هذه القصاصات القديمة لتعلم سبب اهتمام جيرالد للاحتفاظ بها. كانت كلها تقريباً من صحف أمريكية يرجع عهدها إلى سبع سنوات مضت وكلها تتحدث عن محاكمة رجل محتال يدعى تشارلز لومتر، وفهمت أليكس مما قرأته أن لومتر اتهم بقتل بعض النساء اللاتي وقعن في شباكه وأن جثة إحدى النساء قد وُجدت

مدفونة في قبو منزل كان قد استأجره، وأن عدداً من النساء اللواتي اقترن بهن قد اختفين تماماً وانقطعت أخبارهن ولم يسمع عنهن شيئاً، وأن عدد ضحاياه من النساء قد بلغ تسع سيدات. وقد دافع لومتر عن نفسه بمهارة واستعان بأبرع العقليات القانونية في الولايات المتحدة الأمريكية. ولو أنه قد حوكم في إنجلترا لأطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة، ولكن هيئة المحلفين في المحكمة الأمريكية وجدته «غير مذنب» في جريمة القتل وأدانته في تهم أخرى منها الاحتيال وتعدد الزوجات، وقضت المحكمة بسجنه عدة سنوات.

تذكرت أليكس اهتمام الرأي العام بهذه القضية والضجة التي أثارها فرار لومتر من السجن بعد ثلاث سنوات، ولم يقبض على هذا المجرم بعد ذلك أبداً. غير أن شخصيته الغريبة وتأثيره العجيب على النساء كانا موضوع مناقشات مطولة في الصحف الإنجليزية في ذلك الوقت. كذلك تحدثت الصحف بإسهاب عن براعته في الدفاع عن نفسه وعن سقوطه فاقد الوعي في قفص الاتهام أكثر من مرة بسبب إصابته بضعف في القلب، وإن كان البعض قد فسّر نوبات الإغماء بأنها دليل على قدرات المتهم وبراعته في التمثيل.

ووجدت أليكس صورة للمتهم في إحدى القصاصات فأمعنت النظر فيها بشيء من الفضول. كانت صورة رجل طويل اللحية يخيل للناظر إليه أنه أحد العلماء أو أساتذة الجامعات، وذكرتها الصورة بوجه تعرفه؟ وفجأة أدركت أن الصورة تذكرها بوجه جيرالد، نفس العينين ونفس الجبين!

لعل ذلك هو سبب احتفاظ جيرالد بالقصاصات. ووقعت عيناها على العبارة التي كُتبت تحت الصورة وفهمت منها أن المتهم كان يسجل في دفتر مذكراته تواريخ فتكه بضحاياه من النساء وأن إحدى النساء قد شهدت ضده وتعرفت عليه وهو في قفص الاتهام من ندبة في رسغ يده اليسرى.

وهنا ترنحت أليكس وسقطت القصاصات من يدها... لقد كانت هناك ندبة في رسغ يد جيرالد اليسرى!

* * *

-٦-

دارت الدنيا حولها، وقد أدهشها فيما بعد أنها ربطت بمثل هذه السرعة والثقة بين جيرالد وتشارلز لومتر. لقد شعرت في قرارة نفسها بأنهما شخص واحد وسلمت بهذه الحقيقة بأسرع من طرفة عين ودون أي تردد. وبدأت بعض الملامح الصغيرة المتفرقة تطوف بذهنها ثم تتجمع لتشكل حقيقة كبرى واضحة المعالم. إن النقود التي دفعها ثمناً للمنزل هي نقودها وحدها، وهي حصيلة السنوات التي ائتمنته عليها، وهو لم يسهم من ماله في ثمن المنزل بقليل أو كثير. بل إن الحلم الذي ألح عليها ثلاث مرات قد وضح الآن مغزاه الحقيقي. لقد كانت في قرارة نفسها وبعقلها الباطن ترهب جيرالد مارتن وتريد الفرار منه، وكان ديك وندفورد (في عقلها الباطن أيضاً) هو الشخص الذي تريد أن تفزع إليه في طلب النجدة والغوث. هذا الحلم كان أيضاً من العوامل التي جعلتها تتبين الحقيقة وتصدقها بغير تردد، والحقيقة هي أن جيرالد مارتن وتشارلز لومتر شخص واحد، وأنها ستكون الضحية التالية لهذا السفاك في موعد لعله أقرب مما تتصور!

نعم، ستكون الضحية العاشرة، ذلك مما لا شك فيه.

وأفلتت من فمها صيحة ذعر حين تذكرت الموعد الذي

سجله جيرالد في دفتر مذكراته: "الأربعاء، التاسعة مساءً"، والقبو حيث توجد غرفة التصوير! لقد سبق له أن فتك بإحدى ضحاياه ودفنها في قبو منزله. لا بد إذن أنه كان ينوي الفتك بها في الساعة التاسعة من مساء اليوم الماضي، ولكن كيف وجد الجرأة على تسجيل موعد ارتكاب الجريمة بخط يده في دفتر مذكراته؟ إنه نوع من الجنون بلا شك. لكن لا، ذلك كان إجراء منطقياً، فقد كان يحرص على تسجيل مواعيد عمله بدقة متناهية وكان القتل بالنسبة إليه عملاً لا يختلف عن غيره من الأعمال، ولكن لماذا لم يفتك بها في ذلك الموعد؟ ومن أنقذها؟

هل تردد في آخر لحظة؟ كلا. وجاءها الجواب في لمحة خاطفة، إن مَن أنقذها هو جورج. وهنا فقط أدركت سر غضب زوجها وسخطه على ذلك البستاني العجوز. لا شك أنه قد مهّد السبيل لجريمته بأن أخبر كل من قابله بأنهما يعتزمان السفر إلى لندن في اليوم التالي، ثم جاء جورج لمباشرة عمله على غير انتظار وحدثها عن موضوع السفر إلى لندن فنفته، وحينئذٍ خشي زوجها أن يردد البستاني العجوز الحديث الذي دار بينه وبينها فأحجم عن قتلها في تلك الليلة.

مرت بجسدها رعدة حين اكتشفت أنها نجت من الموت بأعجوبة، إذ لولا أنها ذكرت لزوجها عرضاً ذلك الحديث العابر الذي دار بينها وبين البستاني لما تردد في الفتك بها في الموعد الذي حدده. والآن عليها أن تتحرك. إن الوقت ضيق ولا ينبغي أن تضيع دقيقة واحدة. يجب أن تغادر المنزل

في الحال قبل أن يعود جيرالد. أعادت القصاصات إلى مكانها وأغلقت الدرج، ثم وقفت جامدة في مكانها كأنما سُمّرت قدماها بالأرض، ذلك أنها سمعت صرير باب الحديقة فعلمت أن زوجها قد عاد، وشل الرعب حركتها لحظة، ثم تسللت إلى النافذة وأطلت من وراء الستار.

نعم، لقد رجع زوجها! كان يجتاز الحديقة وهو يبتسم ويترنم بإحدى الأغنيات، وكان يحمل في يده شيئاً جعل قلبها يغوص بين جنبيها، ذلك الشيء كان جاروفاً مما يستخدم في حفر الأرض.

وأدركت بغريزتها أنه يعتزم قتلها في تلك الليلة، ووجدت أنه لا تزال أمامها فرصة للفرار. كان جيرالد قد واصل سيره وهو لا يزال يترنم واتجه نحو الجدار الخلفي للمنزل، ولم تتردد أليكس وهبطت الدرج وثباً واندفعت نحو الباب، ولكنها ما كادت تخرج من المنزل حتى رأت جيرالد مقبلاً نحوها. رآها فهتف قائلاً: مرحباً! لماذا تركضين وإلى أين تسرعين هكذا؟

فحاولت أن تتظاهر بالهدوء وأن تبدو طبيعية. لقد أفلتت الفرصة من يدها هذه المرة ولكنها إذا استطاعت ألا تثير ريبته فسوف تسنح لها فرصة أخرى، بل لعل الفرصة سانحة الآن. قالت بصوت رن في أذنيها ضعيفاً متخاذلاً: كنت أريد أن أمشي إلى نهاية الطريق ثم أعود.

فقال جيرالد: حسناً، سأرافقك.

- كلا يا جيرالد، أرجوك. إنني متوترة الأعصاب وأشعر بصداع وأفضل أن أمشي بمفردي.

قال وهو يصعدها بعينيه: ماذا دهاك يا أليكس؟ أنت شاحبة الوجه وترتجفين.

فأجابت وهي تحاول أن تبتسم: ليس بي شيء. إنني أشعر بصداع، هذا كل ما في الأمر. ولكني أرجو أن يفيدني السير في الهواء الطلق.

فقال وهو يضحك: لا تحاولي أن تثنيني عن مرافقتك لأنني سأرافقك سواء أردت أو لم تريدي.

ترى هل ساوره الشك في أنها قد عرفت حقيقته؟ وبذلت قصارى جهدها لكي تبدو في حالتها الطبيعية ولكنها شعرت بأنه ينظر إليها من ركن عينيه بين الفينة والفينة، وأدركت أنها لم تنجح تماماً في إزالة شكوكه.

وحينما عادا إلى المنزل طلب إليها بإلحاح وإصرار أن تتمدد في فراشها التماساً للراحة، وأحضر زجاجة كولونيا وضمخ صدغيها وجبينها كما يفعل الزوج المحب المخلص. أحست أليكس بأنها موثقة اليدين والقدمين في مصيدة ولا حول لها ولا قوة، ولم يتركها جيرالد بمفردها لحظة واحدة ورافقها إلى المطبخ لمعاونتها في إعداد وجبة العشاء.

كان أسوأ عشاء تناولته طوال حياتها. كانت تشعر بأن الطعام يخنقها ويحبس أنفاسها ولكنها أرغمت نفسها على

ابتلاعه، بل وحاولت أن تبدو مرحة وطبيعية. كانت تعلم عن يقين بأنها تناضل من أجل الحياة، فهي وحدها مع هذا الرجل في ذلك المنزل الموحش بمنأى عن كل عون أو نجدة. كانت تحت رحمته تماماً وكل أملها أن تزيل شكوكه حتى يطمئن إليها، ولو لفترة قصيرة، ريثما تصل إلى الهاتف في الردهة وتطلب النجدة... ذلك كان أملها الوحيد الآن.

وتبلج لها شعاع من الرجاء حين تذكرت كيف تخلى زوجها عن خطته وعدل عن ارتكاب جريمته يوم الأربعاء. هب أنها زعمت له أن ديك وندفورد قد اتصل بها تليفونياً وأنه الآن في طريقه لزيارتهما؟ وهمّت بأن تتكلم ولكن الكلمات اضطربت على شفتيها، ولم تلبث أن عدلت عن هذه الفكرة. إن هذا الرجل لن يسمح لأية عقبة بأن تحول بينه وبين خطته مرة أخرى. إنه يخفي تحت هدوئه الظاهري عزيمة صلبة كالفولاذ، فإذا قالت له إن ديك وندفورد في طريقه إليهما فإن ذلك قد يدفعه إلى التعجيل بارتكاب جريمته. قد يقتلها على الفور ثم يتصل بديك وندفورد تليفونياً ويطلب إليه في هدوء أن يرجئ زيارته لأنهما قد دعيا فجأة لزيارة بعض الأصدقاء. يا إلهي! لو كان ديك وندفورد في طريقه إليهما الآن حقاً! لو كان ديك...

وومض في ذهنها خاطر فجائي فنظرت إلى زوجها خلسة كأنما لترى ما إذا كان قد قرأ ما يدور بخلدها، وما أن اتضحت الفكرة في ذهنها حتى عادت إليها شجاعتها ورباطة جأشها وأحست بطمأنينة وثبات اندهشت له هي نفسها، فنهضت

من مقعدها وأعدت القهوة وحملتها إلى الشرفة حيث تعودا قضاء أمسياتهما.

وفجأة قال جيرالد: أود أن أذكّرك بأننا سنقوم بتحميض الأفلام الليلة.

فمرت بجسدها رعدة شديدة ولكنها أجابت بقلة اكتراث: ألا يمكنك تحميضها وحدك؟ أنا متعبة الليلة.

فابتسم وأجاب: العملية لن تستغرق وقتاً طويلاً، وأعدك بأنك سوف لا تشعرين بالتعب بعدها.

ويبدو أن العبارة راقته لما تنطوي عليه من معنى خفي، إذ ازدادت ابتسامته اتساعاً بينما زمّت أليكس شفتيها لتمنع نفسها من الصراخ. لكنها أدركت أن الوقت قد حان لتنفيذ فكرتها، فنهضت واقفة وقالت بقلة اكتراث: سأتصل تليفونياً بالجزار، فابق حيث أنت. لا ضرورة لأن تبرح مكانك.

فهتف قائلاً: الجزار؟ في هذا الوقت من الليل؟

– إن حانوته مغلق طبعاً أيها الأبله، ولكني سأتصل به في منزله. غداً يوم السبت وأنا أريده أن يحجز لي قطعة من لحم العجول للشواء قبل أن يتخاطف الزبائن أجود القطع. إنه رجل لطيف ومستعد دائماً لتلبية كل مطالبي.

* * *

-٧-

هرولت أليكس إلى داخل المنزل وأغلقت الباب خلفها. وسمعت جيرالد يقول: "لا تغلقي الباب"، فأسعفها ذهنها بالجواب المناسب. قالت بسرعة: أخشى أن يغزو البعوض المنزل وأنا أمقت البعوض. هل تتوهم أنني سأغازل الجزار أيها الأبله؟

وما أن وصلت إلى الردهة حتى اختطفت سماعة الهاتف وطلبت رقم فندق السائح. تمّ الاتصال بينها وبين الفندق على الفور، فسألت: ألا يزال السيد ديك ونفدفورد بالفندق؟ هل أستطيع التحدث إليه؟ ثم وثب قلبها بين ضلوعها، فقد دفع زوجها الباب ودخل.

قالت في دلال: اذهب يا جيرالد أرجوك، لا أحب أن ينصت إليّ أحد وأنا أتحدث بالهاتف.

فضحك وقال وهو يلقي بنفسه على أحد المقاعد: أهو الجزار من تتحدثين إليه حقاً؟

فأسقط في يدها وتملكها اليأس. لقد فشلت خطتها مرة أخرى. بعد قليل سيتناول ديك وندفورد السماعة ويتحدث إليها، فهل تجازف بكل شيء وتصرخ في طلب النجدة؟ وبينما هي في أشد حالات الحيرة واليأس إذ بها ترى الزر

الصغير المثبت بالسماعة الذي يسمح لصوتها أو لا يسمح له بالوصول إلى الطرف الآخر، وأوحى إليها هذا الزر بخطة جديدة. قالت لنفسها: إنها خطة صعبة التنفيذ لأنها تتطلب اليقظة وحضور الذهن وحسن اختيار الكلمات المناسبة مع الجرأة وعدم التردد، ولكن أعتقد أنني أستطيع تنفيذها، بل يجب أن أنفذها.

سمعت صوت ديك وندفورد في الطرف الآخر، فضغطت الزر قائلة: "السيدة أليكس مارتن تتكلم من بيت العندليب. أحضر..."، ثم رفعت إصبعها عن الزر فانقطع الاتصال التليفوني، ولكنها مضت تقول: "غداً صباحاً رطلين من لحم العجول". وضغطت الزر ليعود الاتصال التليفوني واستطردت قائلة: "إن الأمر هام جداً"، ورفعت إصبعها عن الزر ومضت تقول: "شكراً لك يا سيد هاثواي، ومعذرة على إزعاجك في مثل هذا الوقت من الليل، ولكنها..." وضغطت الزر واستطردت قائلة: "مسألة حياة أو موت"، ثم رفعت إصبعها عن الزر قائلة: "حسناً، غداً صباحاً". وضغطت الزر وقالت: "بأسرع ما يمكن"، ثم وضعت السماعة واستدارت نحو زوجها وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة.

قال لها: أبهذا الأسلوب تتحدثين إلى الجزار؟

ردّت وهي تصطنع المرح: إنه أسلوب النساء أيها العزيز.

كانت وجنتاها موردتين من فرط الانفعال. إن جيرالد لم

يلاحظ شيئاً، أما ديك، سواء فهم أو لم يفهم، فإنه سيأتي حتماً. وانتقلت إلى غرفة الطعام وأضاءت المصباح.

قال جيرالد وهو ينظر إليها بفضول ودهشة: أراك ممتلئة نشاطاً وحيوية؟

فأجابت: لا غرابة في ذلك فقد زال الصداع.

وجلست في مقعدها المألوف وابتسمت لزوجها وهو يتهالك في المقعد المقابل، وقالت في نفسها: لقد نجحت. الساعة الآن الثامنة و ٢٥ دقيقة، ومن الأكيد أن ديك سيحضر قبل أن تدق الساعة التاسعة.

قال جيرالد شاكياً: لم تعجبني القهوة التي احتسيتها الآن، كانت مرة المذاق.

فردت: لقد صنعتها من نوع جديد من البن على سبيل التجربة، وما دامت لم تعجبك فلن أبتاع هذا النوع مرة أخرى.

قالت ذلك وتناولت قطعة من القماش وأخذت تطرزها، بينما شرع جيرالد في قراءة أحد الكتب، ولكنه ما لبث أن نظر إلى الساعة وطرح الكتاب بقربه وتمتم: الساعة الآن الثامنة والنصف وقد آن لنا أن نذهب إلى القبو لتحميض الأفلام.

فسقطت قطعة القماش من يد أليكس وردت باضطراب: لا يزال الوقت مبكراً، فلننتظر حتى الساعة التاسعة.

- كلا يا فتاتي، لقد حددت الساعة الثامنة والنصف

موعداً للعمل حتى يتسنى لك أن تأوي إلى فراشك في ساعة مبكرة.

- ولكني أفضل الانتظار حتى الساعة التاسعة.

- أنت تعلمين أنني ألتزم دائماً بالموعد الذي أحدده. هلمي بنا يا أليكس، لن أنتظر دقيقة أخرى.

فنظرت إليه وشعرت على الرغم منها بموجة من الذعر تغشى جسدها. لقد سقط القناع أخيراً. ورأت يديه ترتجفان وعينيه تتألقان، ولاحظت أنه لا يكف عن ترطيب شفتيه الجافتين بلسانه. لقد تملكته شهوة القتل ولم يعد يهتم بإخفاء انفعاله ولهفته، وتمتمت أليكس لنفسها: نعم، إنه لا يستطيع الانتظار، إنه كالمجنون!

ومشى إليها فألقى بيده على كتفها وأنهضها عنوة وهو يقول: هلمي يا فتاتي وإلاّ حملتك إلى القبو.

قال ذلك بهدوء، ولكن بصوت ينطوي على وحشية روعتها. وبحركة فجائية أودعتها كل ما تملك من قوة تخلصت من قبضته وتراجعت حتى التصقت بالجدار. كانت بلا حول ولا قوة وليس في استطاعتها الفرار، بل ليس في مقدورها أن تفعل شيئاً على الإطلاق، وها هو يقترب منها. قال: هلمّي يا أليكس.

صاحت: لا، لا!

ثم بسطت يديها كأنما لتدفعه عنها وصاحت: قف

يا جيرالد، أريد أن أقول لك شيئاً، أريد أن أعترف لك.

فتوقف وقال بفضول: تعترفين؟

كانت كلمة الاعتراف هي أول كلمة تبادرت إلى ذهنها فنطقت بها دون أن تعي، ثم أرادت أن تثير اهتمامه وتصرفه عما عزم عليه فمضت تقول في يأس: نعم، أريد أن أعترف لك.

فنظر إليها بازدراء وسأل: بعلاقة بينك وبين عاشق آخر فيما أظن؟

- لا، أريد أن أعترف لك بشيء آخر... يمكنك أن تسميه جريمة.

ولاحظت على الفور أنها قد مست وتراً حساساً وأنها استطاعت أن تثير اهتمامه، وأشعرها ذلك بالطمأنينة وبأنه لا يزال في مقدورها أن تسيطر على الموقف. قالت بهدوء: يحسن بك أن تجلس. ثم مضت إلى مقعدها فجلست عليه، وأكثر من ذلك انحنت وتناولت قطعة القماش التي كانت تطرزها. كانت تتظاهر بالهدوء والثبات ولكن عقلها كان يعمل بسرعة لتلفيق قصة خليقة بأن تثير فضوله واهتمامه إلى أن تأتي النجدة.

وبدأت تتحدث ببطء، قالت: لقد قلت لك مرة إنني عملت كاتبة اختزال طوال خمسة عشر عاماً، ولكن تلك لم تكن الحقيقة. الحقيقة هي أنني انقطعت عن العمل مرتين.

الأولى وأنا في الثانية والعشرين من عمري حين التقيت برجل متقدم في السن يملك ثروة صغيرة، فأحبني وطلب الاقتران بي، فوافقت وتزوجنا.

وتريثت قليلاً ثم استطردت قائلة: وبعد الزواج أقنعته بالتأمين على حياته لمصلحتي. رأت دلائل الاهتمام على وجه زوجها فمضت في حديثها بمزيد من الثقة والاطمئنان، قالت: وحدث خلال الحرب أنني عملت بعض الوقت في صيدلية أحد المستشفيات العسكرية وعرفت الكثير عن العقاقير النادرة والسموم.

وصمتت ونظرت إليه، كان اهتمامه المفرط واضحاً في عينيه، ولا عجب، فإن المجرم يهتم دائماً بأنباء الجرائم. لقد قامرت على هذه الحقيقة ونجحت. ونظرت خلسة إلى عقربي الساعة. كانت الساعة قد بلغت الثامنة و ٢٥ دقيقة، قالت: كان يوجد نوع من السم على شكل مسحوق أبيض تكفي كمية قليلة جداً منه لقتل من يتناولها. أنت تعرف شيئاً عن السموم، أليس كذلك؟ ألقت هذا السؤال على سبيل الاختبار، حتى إذا كان الجواب بالإيجاب توخت الحذر في قصتها، ولكنه أجاب: لا، لا أعرف عنها إلاّ القليل.

فتنهدت بارتياح وردت: لا شك أنك قد سمعت عن عقار الهيوسكين؟ إن مفعول ذلك السم لا يختلف عن مفعول الهيوسكين، مع فارق واحد هو أنه لا يترك أثراً، وأي طبيب يفحص جثة من يموت به لا يسعه إلاّ أن يقرر أن الوفاة طبيعية

نتيجة هبوط في القلب. وذات يوم سرقت كمية صغيرة من هذا السم واحتفظت بها.

وصمتت لتستجمع أفكارها، فقال جيرالد: استمري.

- لا، إنني خائفة. سأروي لك القصة في وقت آخر.

صاح وقد نفد صبره: بل الآن، أريد أن أسمعها الآن.

- كان قد مضى على زواجنا شهر واحد، وكنت أعامل زوجي العجوز بكل رقة ولطف فراح يمتدحني ويطري صفاتي ويتحدث عن إخلاصي إلى الأصدقاء والجيران، حتى استقر في ذهن الجميع أنني زوجة وفية تحب زوجها وتتفانى في خدمته وإرضائه. وكنت أعد له القهوة بنفسي كل مساء، وذات ليلة كنا وحدنا فأعددت له القهوة كالمعتاد ووضعت كمية من ذلك السم في قدحه.

قالت ذلك وتريثت، وتشاغلت بوضع الخيط في الإبرة بكل هدوء! لم يكن قد سبق لها أن مثلت دوراً ولكنها كانت في تلك اللحظة تضارع أعظم ممثلة وقفت على خشبة المسرح. كانت فعلاً تعيش دور القاتلة ذات الضمير الميت والقلب الأصم!

* * *

-٨-

طال صمتها، وأحست بعيني زوجها تصعدانها في فضول. ثم قالت: وجلست أرقبه، ومضى كل شيء في هدوء. شهق شهقة قصيرة واحدة وبدا كأنه يبحث عن الهواء، ففتحت النافذة، وسمعته بعد ذلك يقول إنه لا يستطيع مغادرة مقعده... ثم أسلم الروح.

وكفت عن الكلام وابتسمت. كانت الساعة قد بلغت التاسعة إلاّ ربعاً... لا شك أن ديك سيصل خلال دقائق. قال جيرالد: وكم كان مبلغ التأمين؟

- نحو ألفين من الجنيهات، وقد ضاربت به وخسرته فعدت إلى عملي القديم في المكتب، ولكن لم يكن في نيتي البقاء طويلاً. وبعد بضعة شهور قابلت رجلاً آخر أوفر شباباً وأكثر مالاً من الزوج الأول، وكان على جانب كبير من الوسامة، فعقدنا قراننا في هدوء في مدينة ساسيكس. وحاولت إقناعه بالتأمين على حياته فلم يوافق، ولكنه كتب وصية لمصلحتي، وكان يحب القهوة التي أعدها له بنفسي، تماماً كزوجي الأول.

ابتسمت وأضافت قائلة ببساطة: إنني أصنع قهوة جيدة... وعادت إلى قصتها قائلة: كان لي بعض الأصدقاء في القرية

التي أقمنا فيها فأسفوا لي أشد الأسف حين علموا أن زوجي قد مات فجأة بهبوط القلب في إحدى الأمسيات عقب تناول طعام العشاء. ولم أشعر بالارتياح للطبيب الذي فحص الجثة، ليس لأنه ارتاب بي وإنما لأنه دُهش دهشة بالغة لوفاة زوجي فجأة على هذا النحو.

لا أدري لماذا عدت بعد ذلك مرة أخرى إلى عملي في المكتب، وأعتقد أنني فعلت ذلك بحكم العادة. المهم أن زوجي الثاني ترك لي حوالي نحو آلاف من الجنيهات، فلم أضارب بها هذه المرة وإنما استثمرتها، وها أنت ترى...

ولكنها لم تتم عبارتها، فقد رأت وجه جيرالد مارتن يحتقن بغتة، وفوجئت به يشير نحوها بإصبع الاتهام ويصيح بصوت مختنق: القهوة... يا إلهي، القهوة! لقد فهمت الآن لماذا كانت القهوة مرة كالعلقم. أيتها التعسة، لقد عدت إلى لعبتك القديمة ووضعت لي السم في القهوة!

وأمسك بحافة مقعده وتحفز للوثوب عليها، وصاح مرة أخرى: لقد وضعت لي السم في القهوة.

فوثبت أليكس من مقعدها وتراجعت حتى التصقت بالجدار بجوار المدفأة. كانت ترتجف ذعراً وهلعاً، وفتحت فمها لتنفي التهمة عن نفسها، ثم تريثت. إنه يتحفز للوثوب وسينقض عليها بعد لحظة. واستجمعت كل قواها وقالت وعيناها لا تتحولان عن عينيه: نعم، لقد دسست السم في قهوتك، والسم يسري الآن في شرايينك. إنك لا تستطيع

الحراك من مقعدك، لا تستطيع الحراك من مقعدك!

آه، ليتها فقط تستطيع أن تبقيه حيث هو بضع دقائق أخرى! ولكن ما هذا؟ إنها تسمع وقع أقدام في الخارج وصرير باب يفتح. قالت مرة أخرى: إنك لا تستطيع الحراك من مقعدك، لا تستطيع الحراك من مقعدك!

ومرت بجواره وركضت إلى الخارج لتسقط فاقدة الوعي بين ذراعي ديك وندفورد، وصاح الشاب في ذهول: يا إلهي! ماذا حدث يا أليكس؟ ثم التفت إلى الرجل الذي أقبل معه والذي كان يرتدي ثياب الشرطة وقال له: ادخل المنزل وانظر ماذا يحدث.

حمل أليكس ومددها على أريكة في الشرفة وانحنى فوقها وهو يتمتم قائلاً: يا فتاتي العزيزة، ماذا فعلوا بك أيتها المسكينة؟

فخفقت أهدابها وتحركت شفتاها وهتفتا باسمه، وعاد الشرطي في هذه اللحظة وقال: لا يوجد أحد يا سيدي سوى رجل جالس في مقعد وعلى وجهه دلائل الفزع، ويخيل إليّ...

- ماذا؟

- يخيل إليّ أنه قد مات!

* * *

قبل الإعدام

-١-

كانت الباخرة النهرية تسير وسط نهر الدانوب وتشق طريقها خلال مياهه الزرقاء الفاتنة، وكانت الشمس قد توارت للتو في الأفق وألقت على زرقة السماء غلالة من الأرجوان زادت من بهائها وجمالها. ووقف فيليب مونسيل على ظهر الباخرة يستند إلى حاجزها يمتع البصر بهذا المنظر الخلاب ويرسل أنظاره إلى الشاطئ الذي يقع على بعد ربع ميل من الباخرة، متأملاً ما يقوم عليه من مناظر ومشاهد لا تقل رونقاً وحسناً في وسط هذا الجمال الطبيعي الذي لا يجتمع لكثير من بقاع الأرض.

وعلى حين غرة سمع صوت ارتطام جسم بالماء وانتشر الرشاش في قوة فأجفل فيليب وفزع، ورُدّ إلى ما حوله وهبط كارهاً من سماء الخيال التي كان يسبح فيها بسبب معالم الجمال التي تقوم في ذلك المكان من بلاد المجر، وأبصر بعض ملاحي الباخرة يهرعون إلى مؤخرتها حيث لحق بهم فريق من المسافرين، وحينما اقترب منهم فيليب قابله أحد ضباط السفينة وسمعه يقول باهتمام: لقد أُنقذت الفتاة التعسة، ولكن هل يوجد طبيب بين المسافرين؟

فأجابه فيليب على الفور: لا أعرف طبيباً بين المسافرين

ولكن ربما أمكن والدتي أن تقوم بهذه الخدمة، فقد كانت ممرضة في شبابها وهي تتقن مثل هذه الإسعافات الأولية.

وأسرع فيليب إلى قاعة الجلوس في مقدمة السفينة حيث كانت أمه، السيدة مونسيل، تلعب الورق مع بعض الأصدقاء، وما أن أفضى إليها بما حدث حتى هبّت من مكانها على الفور قائلة: سأذهب إليها حالاً، وعليك الإسراع إلى مقصورتي حيث تجد في حقيبة يدي الصغيرة زجاجة بها أملاح منبهة. هيا أحضرها فوراً فسنحتاج إليها.

ركض فيليب إلى المقصورة وأخذ يبحث عبثاً عن حقيبة اليد، ورجّح أخيراً أن تكون والدته قد نسيتها في قاعة الطعام حيث رآها معها لآخر مرة. وقد صدق ظنه إذ كانت الحقيبة لا تزال في موضعها، وأسرع عائداً بها وكأنما عثر على أكسير الحياة. ولكنه توقف بغتة حين قابلته السيدة مونسيل في منتصف الطريق وقالت له بهدوء: على رسلك، فلم تعد للفتاة بها حاجة.

- ماذا؟ هل استيقظت من إغمائها؟

- لم يغمَ عليها وإنما كانت مجهدة كثيراً.

عندئذ أقبل أحد المسافرين يقول: أسمعت؟ أعرفت؟

- عرفت ماذا؟

- الحادث لم يكن عرضاً، بل كان محاولة انتحار.

* * *

ظلت السفينة تتابع مجرى الدانوب طوال الليل، وكانت تتوقف من حين إلى آخر بالقرى والمدن الواقعة على النهر فتودع ركاباً وتحمل آخرين. وانبثق الفجر على سهول خضراء فسيحة تترامى على جانبي النهر، وعندما علت الشمس في الأفق أخذت الحياة تتدفق في السفينة شيئاً فشيئاً وبدأ النور يتصاعد من مكان الدرجة الثالثة من السفينة الذي اكتظ بجموع الفلاحين في ثيابهم الوطنية الزاهية.

واستيقظ فيليب مبكراً كعادته وتناول فطوره منفرداً، فما كانت السيدة مونسيل تغادر مقصورتها إلاّ قبيل الظهر. واتجه إلى المكان المخصص لركاب الدرجة الثالثة فألفاهم قد تجمعوا حول شاب عملاق اتخذ مكانه بجانب حاجز الباخرة وأخذ يرفع عقيرته بإحدى الأغاني الوطنية ينشدها على نغمات المندولين، وقد ملك على المجتمعين قلوبهم فاستخفهم الطرب وأخذوا يشاركونه الغناء. وأبصر بفتاة تجلس في معزل عن بقية الركاب فوق كومة من الحبال وقد أسندت رأسها على يدها واستغرقت في تفكير عميق. وكانت الفتاة أقرب إلى الطفولة يكسوها جمال نادر يلفت الأنظار ويستحوذ على القلوب، وكانت في شغل عن الغناء بتفكيرها المضني الذي ظهرت آثاره في عينيها الزرقاوين. وسمع فيليب أحد الملاحين يقول له في لهجة إنجليزية ركيكة: تلك هي فتاة الأمس التي سقطت في الماء.

وكأنما أحست الفتاة بأنها موضع حديثهما، فرفعت رأسها وحدقت النظر إلى الملاح واندفعت تحدثه في لهجة

غريبة يبدو الغضب جلياً في حواشيها، فسأله فيليب: ماذا تقول الآنسة؟

فأجابه الملاح: تقول إنها ليست مدعاة للحديث والتسلية وتود لو أنها ماتت.

- إذن لننصرف عنها.

وانصرف عنها فيليب وتركها تبادل الملاح العبارات العنيفة. وقبيل الظهر بدت مدينة بودا تعلو الشاطئ الصخري وقد انعكست أشعة الشمس الذهبية على أبراجها ومناراتها، وتقابلها على الضفة الأخرى من الدانوب مدينة بست بمقاهيها المتسعة وحدائقها الكبيرة. وتعالى صفير الباخرة إيذاناً بانتهاء الرحلة. وفيما كانت السيدة مونسيل تعد حوائجها التفتت إلى وحيدها فيليب قائلة له: لعلك لم تعرف أنني قد أعطيت عنواننا لتلك الفتاة التعسة؟

- أحقاً؟!

- أجل، لقد كتبت اسم الفندق الذي سننزل فيه على إحدى بطاقاتي وأرسلته إليها مع أحد الملاحين.

- ولكن... ما الذي دفعك إلى ذلك يا أماه؟

- لا أدري، ربما كان ذكائي الطبيعي يا عزيزي فيليب. لا أدري كيف أصفه لك وأنت محروم منه.

فقال فيليب ضاحكاً: أحقاً أنا محروم منه؟ ولكنني على

كل حال لست بحاجة إليه ما دمت بصحبة أم يفخر كل إنسان بها، تدبر كل شيء وتتكلم خمس لغات بطلاقة وتعرف كل عواصم أوروبا معرفة تامة، وأيضاً تسعف الغرقى.

- هراء، أنا لم أسعفها ولم تكن بحاجة إلى إسعافي لأنها لم تكن على وشك الغرق، لقد ضاقت بها الحياة حقاً ولكنها لم تجد في نفسها القدرة على إغراق نفسها.

- ولماذا كانت تريد إغراق نفسها؟

- الله وحده يعلم. ومن الغريب أنه لم يمضِ على خروجها من الماء عشر دقائق حتى كانت قد استردت بشاشتها. وقد علمت منها أنها خالية الوفاض لا تملك سوى تذكرة السفر، ولا أظن أن الدراهم القليلة التي أعطيتها إياها تكفيها طويلاً في بودابست، ولذا فقد بعثت إليها بعنواني. أفهمت؟

وأقبل أحد الملاحين إذ ذاك، فنظرت إليه السيدة مونسيل وسألته: هل سلمت البطاقة للآنسة؟

- أجل يا سيدتي، وهي تشكرك.

❊ ❊ ❊

كانت تلك أولى زيارات فيليب مونسيل لمدينة بودابست، العاصمة المجرية التي تسمى في أوروبا الوسطى آخر بلاد الغرب وأولى بلاد الشرق، ومن ثم فما كاد يستقر له قرار في الفندق، فكان يخرج إلى التلال الصخرية المجاورة ويمضي الوقت في تسلقها. ورغم هذا النشاط البادي فإن فيليب

لم يكن مثالاً للشاب الرياضي بمثل ما عليه أقرانه في جامعة كامبردج التي كان ملحقاً بأولى سني الدراسة فيها. وكان الفتى في العشرين من عمره، طويل القامة، بادي النحافة، جميل المحيا، أسود الشعر، أزرق العينين، رقيق القلب إلى درجة تستلفت النظر، حذراً في كلامه متئداً في حركاته، يكاد يزن كل كلمة منها بميزان دقيق. ولعله كان بهذه الطباع يعد نفسه للسلك السياسي الذي كان يصبو للخدمة فيه.

ومنذ توفي والده السيد مونسيل وبدأت أمه تشرف على تربيته أخذت تمنحه بالتدريج الحرية التي يحتاج إليها أمثاله من الشبان. وقد ساعدها ثراؤها الواسع على القيام بعدة رحلات إلى الخارج أكسبت فيليب كثيراً من المزايا وصقلت جانباً من طباعه التي يغلب عليها جمود فطري.

وخرج فيليب في اليوم الثالث إلى التلال كعادته، وما كاد يبلغ قمة أول تل صادفه حتى أبصر بالفتاة المجرية تجد في أثره، فتوقف بجانب صخرة كبيرة حتى أدركته وقدمت له بطاقة والدته التي عليها عنوان الفندق وقد أوشكت أن تمحى معالم الكتابة منها بسبب كثرة الطي وما تشربته من عرق وأوساخ. وكانت الفتاة في حالة يرثى لها من النصب والتخاذل، وكانت عارية القدمين إلاّ من حذاء مكشوف (صندل) يكبر حجم قدميها بكثير، أما ثيابها فكانت بادية البساطة.

وقدمت إليه وقد انطبعت على فمها ابتسامة حزينة وسط هذه الهالة من البؤس والشقاء، فرحب بها فيليب رغم

أن التفاهم بينهما كان عسيراً إن لم يكن مستحيلاً. على أنه أدرك، أو بالأصح رجح، أنها تريد الذهاب معه إلى الفندق لمقابلة والدته. وما أن سار بها قليلاً حتى تبين أنها تعاني عرجاً مبعثه ألم في قدمها، فاستوقف أول سيارة قابلته فأقلتهما إلى الفندق.

وجاءت السيدة مونسيل بعد ساعة إلى حجرة فيليب قائلة له: لقد بعثت في طلب طبيب ليعنى بقدميها، فجراحهما بالغة، كما دبرت الأمر مع إدارة الفندق. وبهذه المناسبة، لقد أمكنني أن أعرف شيئاً من تاريخها. اسمها سرولتا واسم آخر أكبر وأكثر تعقيداً، لذا أرى من الأفضل أن اسميها ستيلا. ولقد أساء أبوها الفظ معاملتها بشكل وحشي عندما أراد أن يزوجها من رجل معين لا تريده، وقد أمعن في تعذيبها حتى اضطرت إلى الفرار. لقد آثرت الفرار على الاستسلام والخضوع.

- ولكن كيف أمكنك أن تلمي بكل هذه التفاصيل يا أماه مع جهلك التام باللغة المجرية؟

- هذا سر.

- أتعرفين جانباً منها؟

- ولا كلمة واحدة يا بني! ولكنه الذكاء الفطري يا بني كما أخبرتك مراراً، وذكاء الفتاة أيضاً لأنها تتمتع بقسط وافر منه كما تبين لي. ولقد علمت منها أيضاً أنها لم تقصدنا في بادئ الأمر خشية أن يتعرض لها خدم الفندق بسبب ثيابها

الرئة، فوقفت تترصدك بباب الفندق ترقب خروجك وتبعتك عن كثب لتتحدث إليك على انفراد، وما زالت في إثرك وأنت تتسلق بها التلال الصخرية دون أن تدري.

- كم يدهشني أنك فهمت كل ذلك!

- إنه الذكاء كما قلت لك، ذكاء متبادل من الجانبين، وإني لأرجو أن تساعدك هذه الفتاة متى عدنا إلى إنجلترا على صقل ذكائك وإذكاء ناره الخافتة.

- متى عدنا إلى إنجلترا؟

ردت السيدة مونسيل: هل هناك ما يمنع من أن تصحبنا؟

- كلا، ولكن لماذا يا أماه؟

- لا شيء، هو العطف ليس إلاّ. أراني أرثي لحالها وأيضاً...

فقال فيليب: لا مانع البتة، وإذا كان لا بد لنا من أخذ تذكار من بلاد المجر فإنني أفضل أن يكون ذلك التذكار فتاة.

وابتسمت السيدة مونسيل.

* * *

-٢-

كان آل مونسيل يقيمون في مدينة شاسنجفورد من مقاطعة إسكس. ولعل ثراء السيد مونسيل الأب من جهة وميله الدائم للوحدة والعزلة من جهة أخرى قد أقاما هوة عميقة تفصل ما بين العائلة وبين بقية سكان البلدة الصغيرة. وحينما توفي السيد مونسيل واضطلعت زوجته بتربية وحيدها فيليب وتنشئته كان همها منصرفاً إلى الناحية العلمية البحتة مقصوراً عليها، وللأسف فإن الحكمة لم تكن بين العلوم التي لُقنّها الشاب في فجر حياته. وأغلب الظن أن كفة خسارته على مر السنوات كانت أكثر رجحاناً من كفة مغانمه، ولعل أبرز معالم هذه الخسارة أنه قد شبّ عصبي المزاج خجلاً من رؤية الأغراب، متمادياً فيما يتوارثه آل مونسيل من الانفراد والعزلة. ولم يكن فيليب محبوباً أو مألوفاً لدى جماهير المزارعين الذين يسكنون في الجوار ويكونّون السواد الأعظم من سكان القرية، فما كانوا يدركون أن إعراضه وازوراره عنهم كان خجلاً ورهبة بل فسروه كبراً وأنفة.

أما الذين كانوا يعرفونه حق المعرفة (وقليل هم) فكانوا يعجبون بمبلغ أدبه ووافر كياسته ويلتمسون فيه عنصراً طيباً هو الميل الأكيد لمساعدة الغير. وغاية القول أن قدوم ستيلا إلى دار آل مونسيل ونزولها وسط هذه العائلة كان أشبه بشعاع

من النور يتطرق إلى حجرة مقفلة مظلمة.

وانصرف فيليب إلى العناية بستيلا وتلقينها اللغة الإنجليزية، وساعده ذكاؤها الفطري على تحقيق شطر كبير من غايته قبل أن تنتهي العطلة ويعود أدراجه إلى جامعته في كامبردج. ثم ظل يتردد على منزل العائلة كلما سمحت له العطلة المدرسية بذلك، وكان يلمس في كل زيارة تقدماً محسوساً تحرزه الفتاة سواء في اللغة أو التقاليد الإنجليزية.

ومرت الأيام وكرت الليالي، وأوشك العام الدراسي الثالث والأخير أن ينتهي. وكان فيليب قد اصطفى من بين معارفه زميلاً يدعى أوبري وارد، الذي كان يشاطره نفس المكان، واتخذ منه خلاً وفياً. ورغم التناقض التام بين طباع الشابين وميولهما فقد امتدت بهما أواصر الصداقة دون أن تشوبها شائبة. وبقدر ما كان فيليب ميالاً للدرس والاطلاع كان وارد منصرفاً إلى الرياضة بأنواعها، كأنما خجل الأول ونفرته وميله للعزلة والانفراد يقابلها في الثاني جرأة فائقة وصراحة تجعله محبباً للقلوب.

وانتهت أيام الامتحان وتلتها فترة القلق والانتظار الممل التي تتأرجح فيها آمال الطلاب بين نور الفوز وظلمة الفشل، وبقدر ثبات وارد وانصرافه لرياضته كان فيليب جزعاً يتلمس من صديقه كلمة تشجيع تشد من عزيمته وتجمع شتات نفسه التي توشك أن تطير فزعاً. وحينما أزفت الساعة التاسعة من صباح اليوم المحدد لإعلان النتيجة في مختلف كليات الجامعة

كان الصديقان يجدّان في السير إلى مبنى الإدارة حيث تعلق كشوف تحوي أسماء الناجحين على لوحات خاصة. وكان القلق وحب الاستطلاع قد تمكنا من جميع الطلاب، فليس بينهم إلاّ شارد الذهن حائر الخاطر يحسب ألف حساب لنتيجة الامتحان التي توشك أن تعلن.

ودهش فيليب عندما تبين أن شخصاً واحداً لا يزال محتفظاً بمرحه ورباطة جأشه، لا يشاطر هذه الجماهير ما يساورها من قلق واهتمام، ولم يكن هذا الشخص سوى وارد. وزاد من دهشة فيليب حين أعلنت النتيجة وتبين أن وارد قد اجتاز امتحان الدبلوم بمرتبة الشرف. إن هذا الامتياز العظيم لم يؤثّر في نفس وارد أو يهز عضلة واحدة من عضلات وجهه، بل اكتفى بأن تلفظ بكلمة واحدة هي: «حسناً»، بينما كان إخوانه ممن نجحوا نجاحاً عادياً يقيمون الأرض ويقعدونها سروراً وبهجة ومرحاً.

أكبر فيليب في صديقه هذا الحزم وهذه التؤدة وأقبل عليه يهنئه في حرارة. وبعد دقائق أعلنت نتيجة فيليب وهو بالمثل من الناجحين، ولكنه كان متخاذلاً فلم يقوَ على شق الصفوف ليقرأ الأسماء. وأسرع صديقه وارد يوفر عليه هذه المشقة فاقتحم طريقه خلال صفوف الطلبة حتى بلغ اللوحة ثم عاد بعد قليل يزف البشرى لفيليب. وبعد أن تلقى هذه التهنئة قال من فوره: هيا بنا نبرق إلى ذوينا نزف بشرى النجاح، ولندعُ والدتي وستيلا إلى الحفلة التي سأقيمها ابتهاجاً بنجاحي.

فقال له وارد مردد: ستيلا؟ ما كنت أعلم أن لك شقيقة!

فأجابه فيليب مبتسماً: إنها ليست شقيقتي على كل حال.

وأخذ يقص عليه كيف قابلها هو وأمه منذ ثلاث سنوات في بودابست وأنها تعيش معهما منذ ذلك الوقت وقد بلغت التاسعة عشرة من عمرها وأصبحت تتقن الإنجليزية.

وأعقب ظهور النتيجة أيام من الهدوء كفترات الزمن التي تلي العاصفة الهوجاء، وأخذت مدينة كامبردج تخلو من طلابها يوماً بعد يوم. وكان وارد لا يزال في المدينة وقد انتهى من بحث المرحلة التالية من مراحل حياته فقرر أن يلتحق بإحدى مستشفيات لندن كطبيب مساعد، أما صديقه فيليب فكانت خطته أقل وضوحاً في تفاصيلها وأعظم غموضاً في نهاياتها وأغراضها، فلم تكن الخدمة المدنية تستهويه أو تجذبه رغم المناصب العالية التي تسلمها أبوه في أيامه، ولم تكن الصحافة محببة إلى قلبه بالمثل ولا دراسة القانون، وكان ما لديه من دخل وافر يجعله يعرض عن التفكير في مثل هذه النواحي من الحياة العملية. وهكذا لم تسعده ثروته أو تفده، بل كانت على النقيض أحد أسباب الحد من همته.

وبقيت ناحية واحدة من نواحي الحياة العملية هي التي بهرته بنورها واستهوت على قلبه بخيالها، تلك هي الحياة السياسية. وكان ذهن فيليب من النوع الإداري المبتكر الذي يجيد حبك الخطط وسبكها على الورق، وحتى هذا النوع

من الحياة كان طريق الفوز فيه يكاد يكون مسدوداً لأن إحراز النجاح والشهرة فيه يستلزم الفوز في الانتخابات النيابية، ودون ذلك خرط القتاد، فهو ليس بالخطيب المسيطر على أعصابه أو المعسول الألفاظ أو المرن الأسلوب الذي يمكنه أن يكبح جماح الجماهير ويروضها ويسيطر عليها.

وحين فاتح أمه ذات مرة في اختياره لهذا النوع من الحياة العملية المستقبلية أبدت عدم ارتياحها قائلة له: ما لك وللسياسة يا ولدي العزيز؟ بالله عليك، هلا اخترت أي مهنة غير هذه التي سيكون فشلك فيها أبلغ من أي فشل آخر منيت به؟ إنني أنصحك أن تسعى لمنصب في السلك الدبلوماسي أو أن تعمل في البورصة، وإذا صعبت عليك الموازنة في الاختيار فعد إلى كامبردج لتمضي سنة أخرى في ثقافة أعلى. أو عليك بالأسفار والرحلات فلدينا من المال ما يكفي، أو اعمل في التأليف وأنتج كتباً تصيب من ورائها ما تريده من شهرة وصيت، أو تزوج والجأ إلى الهدوء العائلي السعيد.

فرد فيليب مستغرباً: أتزوج؟ وممن؟

فأجابته أمه بحدة: أظن أن هناك بعض المسائل التي يجدر بك أن تبت فيها بنفسك دون الاستعانة بي.

وعلى الرغم من مهارتها الفائقة ولباقتها التامة فإن السيدة مونسيل عجزت أن تفهم ابنها فيليب على حقيقته، فلم تدرك أنه تحت هذا المظهر الخارجي من بطء الفهم والرغبة الملحة في استجداء نصائحها كانت له إرادته المستقلة التي ينصرف

بكليته لتحقيقها ويبذل كل رخيص وغالٍ في سبيل الوصول إلى أهدافها.

وبعد أيام قليلة حل اليوم الذي حدده فيليب لحفلته. وأقبلت السيدة مونسيل وستيلا في سيارتهما الفخمة وأمضيتا سحابة النهار في كامبردج، ولأول مرة تعرفتا بوارد. وفي المرحلة النهائية من الحفلة قامت ستيلا إلى المعزف وكان يبدو عليها ضيق ملحوظ، أو لعله صورة من عدم الاهتمام وقلة الاكتراث. وبعد أن غنت قطعتين من أغاني الدانوب الشعبية توقفت عن العزف والغناء معتذرة عن عدم إمكان المتابعة لصداع طارئ ألمّ بها لساعتها.

وعاد فيليب إلى شاسنجفورد ليتفرغ للبحث والتأليف. وصادف أن قابل في إحدى الحفلات التي تقيمها والدته رجلاً يدعى السيد تشارلز ماديسون، هو رئيس اللجنة الفرعية للحزب المحافظ في هذا الإقليم. وحين تبين هذا في فيليب الرغبة بالحياة السياسية والاستعداد للنضال وأنس فيه ميلاً للتبرع لخزينة اللجنة بألف جنيه فاتحه في أمر ترشيحه في دائرة لومبورت، وأعقب اقتراحه بقوله: حقاً إن الدائرة تعد إحدى المناطق الصناعية وقد فاز علينا الحزب المنافس في الانتخابات الماضية بأغلبية تقرب العشرة آلاف صوت، ولا تنسَ أنك شاب وأن لومبورت تقدّر الشباب، ولن يضيرك شيء إن أقدمت على هذه المحاولة.

ولم يكن فيليب قد وطئ أرض لومبورت بقدمه قبل ذلك اليوم الذي حدد بمعرفة لجنة الحزب ليلقي خطابه الأول.

وسألته ستيلا: لماذا تضيع جهودك هباء في بلدة لا يعرفنا فيها أحد؟ لماذا لا ترشح نفسك عن شاسنجفورد بلدتنا، فتضمن جانباً كبيراً من أصوات معارفنا وأصدقائنا؟

فقال فيليب: هذا جائز لولا أن نائبنا الحالي الكولونيل دمبلي هو صديق قديم وقد لا يرغب في اعتزال السياسة لأجلي، ولولا ذلك لقلت إنها فكرة صائبة يا عزيزتي ستيلا.

فهزت الفتاة كتفيها وقالت ببساطة: يخيّل إليّ أنهم قدموك للترشيح في لومبورت لأنهم لم يجدوا من يرشحونه فيها.

- ليس هذا بخيال، بل هو عين الحقيقة، ففي الحياة السياسية يعهد إلى المبتدئين بالمهام الصعبة.

وكانت مهمة صعبة فعلاً، وهي ترويض الألوف التي اجتمعت في دار البلدية لسماع فيليب لأول مرة في حياته، فقد أغلق على المسكين وفارقته الشجاعة، وعندما ارتفعت أصوات الجماهير تقاطعه وتهزأ به طارت نفسه شعاعاً ومني بفشل ذريع تجاوز أقتم صور اليأس التي كان يتوقعها. وسمعته ستيلا ينهي كلمته التي لم تكد تبدأ بعبارة مقتضبة حتى تلاشت ألفاظها بين ضوضاء الجماهير، ثم أبصرت به يتراجع مترنحاً ويهوي متهالكاً ليتلقاه السير تشارلز ماديسون بين أحضانه، فقد أغمي عليه وغاب عن الوعي.

وحُمل فيليب إلى حجرة خلفية حيث أُسعف ببعض الأملاح المنبهة وبكوب من الماء المثلج. وحين عاد إلى

نفسه واسترد صوابه التفت السير ماديسون إلى ستيلا وقال لها: سنعود الآن لاستئناف الاجتماع وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وإنني لواثق من أننا نترك فيليب بين يدين قديرتين.

وما أن انسحب الجمع وبقيت ستيلا بمفردها معه حتى هبت من مكانها وركعت على ركبتيها بجانبه وأمسكت بيديه تدلكهما وتقول له في توسل ورجاء: فيليب، فيليب، لا تبالِ بهم ولا تكترث لهم ولا تأبه لهذه الجماهير الوحشية، فهي ليست بشيء.

فأجاب فيليب متشجعاً: نعم يا عزيزتي، لن آبه لهم.

- لا تجعل للحزن سبيلاً إلى قلبك الكبير يا عزيزي.

فأجاب وهو يمد يده على جدائل شعرها الناعم: وما السبيل إلى ذلك يا عزيزتي؟ يجب أن يمتلئ القلب بالأسى والأسف ولو مؤقتاً إزاء هذا الفشل المنكر، وحتى أنت أراك تظنين أنني قد فشلت، أليس كذلك؟ وألست آسفة لفشلي هذا؟ ولكن لا تحزني، سأفوز يا ستيلا. أجل، سأفوز يوماً ما، إنني أعلم ذلك يقيناً لا يخالطه الشك... لن أقهر.

وأحاطت عنقه بذراعيها وجذبت رأسه نحوها وهي تقول: كم يسرني أن اسمع منك هذه العبارات يا فيليب، كم أحبك حين تتفوه بها! أجل يا فيليب، إنني أحبك، وأعني ما أقوله.

وتوقفت عن الحديث حينما شاهدت وجهه يفر منه لونه

ويعود إليه شحوبه، وسمعته يقول في هدوء: لقد أحببتك منذ زمن يا ستيلا، ولكن ما ظننت أنكِ تبادلينني الحب.

فقالت وهي تضم وجهه إلى وجهها حتى تندت وجنته بدموعها: أيها العزيز البائس، أما خطر لك أبداً أنني أحبك؟

فأجاب متلعثماً: كانت الفكرة تراودني أحياناً، وقد وطدت العزم أن أسألك بصراحة إذا ما كُتب لي الفوز.

وما تلفظ بالكلمة الأخيرة حتى افترّت شفتاه عن ابتسامة جافة غامضة.

* * *

كان فيليب يسير ذات صباح في الشارع الرئيسي في بلدته شاسنجفورد حين وجد نفسه وجهاً لوجه مع صديقه القديم أوبري وارد، وبعد أن تعانق الصديقان طويلاً قال فيليب: وما الذي أتى بك يا عزيزي وارد إلى هذه البلدة الهادئة؟ فراراً من لندن وبهجتها؟

- كلا، بل لقد اكتشفت فيها أخيراً قريباً تربطني به صلة شبه بعيدة، ولما كان وحيداً فقد دعاني لزيارته.

- ومن هو هذا القريب البعيد؟

- إنه طبيبنا الخاص، بل طبيب العائلة خلال الأربعين سنة الأخيرة.

- إن السماء توعد بالمطر مدراراً، فهيا بنا إلى المنزل لتناول الغداء سوياً.

- أنا آسف يا فيليب، فقد وعدت تشارلز بأن يكون غدائي معه اليوم.

- إذن فهيا بنا إلى هذا المقهى القريب نتحدث بعض الشيء.

وهناك علم فيليب أن الدكتور تشارلز يعرض على وارد أن يكون مساعده في عيادته وأن هذا الأخير لا يزال يفكر في الأمر متردداً. وحين غادرا المقهى قبل وارد دعوة فيليب إلى الغداء التي وجهها إليه ثانية لليوم التالي.

* * *

كان فيليب وستيلا يشعران منذ حادث قاعة البلدية في لومبورت بتبدل في علاقتهما، وما كان يدري أحدهما مدى هذا التبدل. ولا شك أن ما دار بينهما من حديث في الحجرة الخلفية في تلك الليلة قد أسفر عن حقيقة العاطفة التي يكنها كل منهما للآخر. ولم يشأ فيليب لفرط خجله (ذلك النقص الوبيل الذي يئن تحت ثقله) أن يذهب في تحديد المسألة إلى أكثر من هذا الحد. وعندما ألمحت ستيلا في حديثها ذات مرة إلى ما طرأ على علاقتهما من تغير أدهشها فيليب حين أجابها: ظننت يا ستيلا أن المسألة قد تحددت نهائياً كما اتفقنا. لقد صارحتك بحبي وبرغبتي في الزواج منك، ولكن لا يمكنني أن أقوم على ذلك حتى أفوز.

فأجابته ضاحكة: إذن، يجب أن نسرع بهذا الفوز. ألا يمكن أن أساعدك قليلاً في هذا السبيل؟

وشعرت بأنها تريد أن تقفز إليه وتحيطه بذراعيها وتقبله، ولكنها جالدت هذه الرغبة حتى كبحتها، ذلك لأن الرجل الماثل أمامها ليس ميت الشعور أو مجرداً منه، بل على النقيض من ذلك لأنه كان دقيق الشعور لدرجة تجعله فريسة لأشد أنواع الخجل كلما تعرض لإحدى المناورات الغرامية.

ولبى وارد الدعوة ظهر اليوم التالي وأمضى زهاء ساعتين في دار آل مونسيل الفخمة والجديرة بأن تسمى قصراً. وبعد أن انصرف قالت ستيلا في صراحة: حين قابلت وارد لأول مرة في كامبردج شعرت بشيء نحوه، أما الآن فقد تبينت أنني لا أميل إليه مطلقاً.

- ولكنك قلت وقتئذٍ إنه أشبه بمواطنيك المجريين؟

- أجل، وما زلت أقول أنه يشبه شبان المجر، وإنه ليعجبني فيه هذا الشبه الظاهر، ولكن شيئاً آخر ينفّرني منه يصعب عليّ أن أصفه، وغاية ما أرجوه أن لا يعود لزيارتنا ثانية.

فقال فيليب مستغرباً: غريب أن تشعري بمثل هذا النفور منه يا عزيزتي! إنه شاب دمث الأخلاق متزن الشخصية أعرفه تمام المعرفة، وثقي أنه...

فقاطعته تقول: لا أنكر شيئاً من هذه المآثر، ولكن ما

العمل؟ فأنا لا أشعر بميل لجانبه أو ارتياح لشخصه، سمه عدم ارتياح أو سمه خوفاً ونفوراً إن شئت، ولكن لا تسألني ما مبعثه لأنني أجهل ذلك!

فقال فيليب: هذا الشعور يبعث على القلق والاهتمام، خاصة وأن وارد قد يعتزم البقاء في البلدة، ويتبع ذلك بطبيعة الحال أن يكثر من التردد علينا، الأمر الذي لا يمكن تلافيه.

وتطلعت إليه ستيلا وقد شرد ذهنها كما لو كانت تتطلع إلى أشياء أخرى خلفه، ثم أخذت تقول في دمدمة: هل تعتقد ذلك؟ ولكنك بعد أن تفوز ونتزوج سترحل من هنا، أليس كذلك؟

- أجل يا عزيزتي، لك ذلك إذا أردت. ولكن هل تنفرين من وارد إلى هذا الحد؟

فأجابته بعد تمهل قصير: كلما فكرت في الأمر شعرت بأنني لا أحمل في قلبي ضغينة أو نفوراً من وارد شخصياً، وإنما الواقع أنني أشعر بشيء من الخوف والوجل كلما كان وارد على مقربة مني. ربما كان هذا هو التعليل الصحيح لشعوري. على أنني لا أريد أن أسترسل في الموضوع أكثر من هذا. إنك تتغلب على أعصابك شيئاً فشيئاً، ولن تلبث أن تفوز بمقعدك في البرلمان ثم نتزوج، ثم... وكانت عيناها تسطعان ببريق عميق، وانحدر صوتها إلى همس وهي تتلفظ بالعبارة الأخيرة.

* * *

غادر أوبري وارد مدينة شاسنجفورد ليعود إليها ثانية بعد أسبوعين ويستقر فيها بصفة نهائية في عيادة قريبه الدكتور تشارلز. وكان وارد على النقيض من سلفه، فبينما كان تشارلز يتصف بكل ما يجب أن يكون عليه الطبيب الوقور من شعر مرسل فضي اللون وابتسامة رزينة وخطى وئيدة وتحفظ تام في أقواله وعباراته، إلى غير ذلك من الصفات والتقاليد التي تليق بالسفراء أكثر منها بالأطباء، نرى وارد على النقيض من ذلك في كل شيء، فهو في ريعان الشباب، ممتلئ بالحيوية والنشاط والمرح، ينطلق في طرقات المدينة وضواحيها على دراجته النارية في غير كلفة أو حذر ولا يتردد في أن يجاهر مريضه بالحقيقة إذا فحصه ولم يجد به شيئاً.

وانقسمت المدينة في بادئ الأمر إلى فريقين: أحدهما يرحب بهذه الشخصية الجديدة ويرى فيها ضرورة تستلزمها روح العصر والتطور (وكان جل هذا الفريق المناصر من الطبقات العاملة)، أما الفريق الآخر فكان أكثر تحفظاً وأناة في إبداء رأيه! على أنه عندما عاد آل مونسيل من رحلتهم السنوية في الخارج وجدوا أن الفريق الثاني قد تلاشى وأن المدينة كلها معجبة بوارد وترى فيه خير خلف للدكتور تشارلز.

وبقيت ستيلا وحدها تأبى أن تساهم في هذا الإعجاب العام وتجيب فيليب كلما سألها: لا فائدة فيما تسألني يا فيليب، لا أشعر بأي ميل نحو وارد ولا أدري في الوقت نفسه سبباً لهذا النفور!

* * *

وبدأت مدينة شاسنجفورد تفقد ما امتازت به من الهدوء وما اشتهرت به من سكينة، وليس ذلك بفضل ما أحدثه وارد فيها من حركة، بل بسبب ما حدث بعد ذلك بأشهر قلائل حينما توفي الكولونيل دمبلي وخلا مقعده في مجلس العموم!

وبعد أن تمّت مراسم الجنازة والدفن عقدت الجمعية السياسية للمدينة وضواحيها اجتماعاً غير عادي وبدأت تفكر في ترشيح من يشغل المقعد النيابي الذي خلا. وقُدم اسم فيليب ضمن ما عرض من أسماء، وفي اجتماع الجمعية ألقى فيليب خطاباً شائقاً نجح في إلقائه نجاحاً كبيراً، فلم يختلج لسانه أو تجفل أعصابه بمثل ما حدث له يوم لومبورت. وانتهى الأمر بأن أجمعت آراء الحاضرين على ترشيحه للانتخاب. وبادر فيليب من فوره فدفع التأمين وقدم الأوراق الرسمية اللازمة، ومرت الأيام سراعاً وكاد ينتهي الأمر له لولا أن مزاحماً تقدم في الساعات الأخيرة قبيل إقفال باب الترشيح ودفع التأمين.

وثارت ستيلا عندما تناهى إليها الخبر وأخذت تلعن السيد جيمس جرينجر هذا الذي تقدم في آخر لحظة لينافس زوجها، وأخذ فيليب يهدئ من ثائرتها قائلاً: ليست لك عقلية سياسية مرنة يا ستيلا. لماذا تحقدين على الرجل؟ أليس هذا من حقه؟ أليس من حق كل إنسان يرى في نفسه الكفاءة أن يتقدم لخوض المعركة الانتخابية؟ ليتقدم للمعركة وسأكون أميناً في منازلته.

قالت ستيلا: وسيكون بمقدوري أن أقدم لك شيئاً من

المعونة يا فيليب، أليس كذلك؟ يمكنني أن أوزع نشرات وأن أمر بالقرى في السيارة أروج لدعايتك.

- سأحتاج إلى مساعدات كثيرة من هذا القبيل يا عزيزتي بلا شك.

وفي عصر اليوم نفسه دق جرس الهاتف، وعندما خفّت إليه ستيلا سمعت صوت رجل يتكلم في الطرف الآخر. واهتز البوق في يدها عندما تبينت صوتاً يقول: أنا وارد، لقد عدت للتو من إجازتي، فهل صحيح ما سمعت من أن فيليب قد رشح نفسه للانتخاب الفرعي؟

وأجابت ستيلا في شيء من الكلفة والنفور: أجل، صحيح ما سمعت.

- حسناً، أود أن أساهم بنصيبي في مساعدته. لست بالخطيب المفوه طبعاً ولكنني أضع نفسي وسيارتي تحت تصرف الدعاية له، ومن جهة أخرى سأستعمل نفوذي في كل مكان لحشد الأصوات له.

قالت ستيلا: شكراً جزيلاً.

- وبهذه المناسبة، إلى أي الأحزاب ينتمي فيليب؟

فترددت ستيلا قليلاً ثم سألته: هل تعني أنك ستساعده أياً كان لونه الحزبي؟

فقال وارد: طبعاً، بكل تأكيد، مهما كان الحزب الذي

يرشح نفسه تحت لوائه.

فضحكت ستيلا طويلاً، ولأول مرة شعرت بشيء من السرور يحل في قلبها مكان النفور والاشمئزاز. وأجابت على الفور: سأبلغه ذلك يا دكتور وارد، وأعتقد أن فيليب سيرحب كثيراً بهذه المساعدة وسيسر لها.

وأعادت سماعة الهاتف مكانها وقد شاعت على فمها ابتسامة.

وبدأت العاصفة الانتخابية تهب وتشتد يوماً بعد يوم، وقد غمرت آل مونسيل في تيارها. ولعل أبرز ما فيها هو ما كانت تتلمسه ستيلا من ضروب المساعدة التي يقدمها وارد. وكان معظم نفوذه في بيوت الطبقات العاملة وأكواخ المزارعين، وكم سمعت في تجولها بعض الأفراد يقولون لها: سنعطي أصواتنا لأخيك يا آنسة لأن الدكتور وارد يمتدحه كثيراً ويحضنا على ذلك! وعندما كانت تزف ستيلا هذه لفيليب كان يجيبها: كم كنت أؤثر أن يمنحوني أصواتهم لأجلي وليس لخاطر وارد، ولكنه يشكر على كل حال.

وأقبل يوم الانتخاب، ومنذ الساعة الثامنة صباحاً إلى مثيلتها في المساء كانت ستيلا في حركة دائبة، لا تعرف الكلل أو الملل ولا تتذوق للراحة طعماً إلاّ في الدقائق المعدودة التي تختلسها لتلتهم بعض الشطائر أو ترتشف قدحاً من الشاي. فكانت تطوف بالقرى والأكواخ النائية وتنقل الناخبين من مساكنهم إلى مقار اللجان حيث التصويت. ودهشت في بادئ

الأمر عندما لم تقع أنظارها على وارد طول اليوم، ولكنها عادت فتذكرت أنه أخبرها أن لديه حالة خطيرة في إحدى القرى النائية، حالة طفلة مصابة بذات الرئة وتحتاج إلى عناية خاصة منه.

وانتهت عملية التصويت في الساعة الثامنة مساء، وعادت ستيلا وفيليب إلى قصر آل مونسيل حيث كان في انتظارهما عشاء فاخر. وكان التعب قد نال منها تماماً وتملكها بشكل ظاهر، أما فيليب فكان لا يقل قلقاً ووجوماً عنه يوم وقف خارج بناء إدارة الجامعة في كامبردج ينتظر إعلان نتيجة الامتحان. وحين انتهيا من تناول الطعام قال فيليب: إذا فزت الليلة في الانتخابات سأخبر والدتي بخطوبتنا.

وأجابته ستيلا على الفور: وإذا لم تفز سأخبرها أنا!

وتطلع إليها فيليب في دهشة يغشاها شيء من الوجوم، ثم مد يده في هدوء حتى بلغت ذراعها، فأمسك بها وضغطها برفق وهو يقول: إنني مغرم بك يا ستيلا.

وفجأة انبعثت ضوضاء محرك دراجة تدوي في عنف وشدة فصاحت ستيلا: إنه وارد. ثم تمالكت نفسها واستأنفت تقول: لقد أدخلت السرور إلى قلبي يا فيليب بعبارتك هذه وإنني لا أقل غراماً بك!

وأقبل وارد هاشاً وأخذ يقول لهما ومعالم السرور بادية على وجهه: أخبار طيبة، جئتكما بأخبار طيبة!

سألت ستيلا بقلق: هل أعلنت نتيجة الانتخاب؟

- كلا، ليس هذا. بل أعني حالة الطفلة التي كنت أعالجها وأمضيت النهار بجانبها. لقد اجتازت مرحلة الخطر بسلام.

فقال فيليب: خبر جميل حقاً، أما نتيجة الانتخاب فأظن أن الصناديق المحتوية على الأصوات قد اكتملت الآن في دار البلدية حيث اللجنة العامة، وإذا بدؤوا في فرز الأصوات الآن فلن يتم الإحصاء قبل منتصف الليل.

فقال وارد: هيا بنا إذن لنشرف على النتيجة النهائية.

ومرت الساعات متثاقلة، وبعد انتصاف الليل بقليل أعلنت النتيجة النهائية وهي فوز جرينجر بصوتين اثنين! فتهالك وارد في مقعده بجانب ستيلا وأخذ يقول مدمدماً: يا لتهكم القدر، يا للسخرية!

فسألته ستيلا: أي سخرية تعني؟

- كنت أفكر في هذه الانتخابات، كان في الكوخ الذي زرته اليوم حيث الطفلة المريضة ثلاثة منتخبين، ولولا حال الطفلة لذهبت معهم وأدلينا بأصواتنا لفيليب ولرجحت كفته بلا شك. ولكن الطفلة كانت حالها من الخطورة بحيث لم يغادر أحدنا مكانه بجوار فراشها لحظة واحدة. لم يكن بمقدورنا البتة أن نذهب إلى القرية للتصويت. والآن كلما تذكرت هذه الأصوات الضائعة أوشكت أن أفقد صوابي.

وهزت ستيلا رأسها في قنوط وقالت متخاذلة: على كل

حال حمداً لله على نجاة الطفلة.

فأمسك وارد بيدها وشد عليها قائلاً: هكذا يجب أن يكون الكلام، أي قيمة لكل هذه الأشياء؟

فردت ستيلا بعصبية: ألا ترى لها قيمة؟ إنني بالمثل، ولكن فيليب!

وأطرق وارد برأسه وهو يقول: أنا شديد الأسف لأجله.

ولم تقل ستيلا شيئاً لفيليب عن الأصوات الأربعة والتي كانت ستبدل مصير المعركة الانتخابية، ولكن هذه التفاصيل بلغته من مصدر آخر على ما يبدو، لأنه أشار إليها في حديثه عندما عادا إلى القصر قائلاً: إنه لمن السخرية أن يكون فشلي راجعاً إلى أعز أصدقائي الذي لم يشأ أن يمنحني صوته.

فقالت ستيلا تصحح عبارته: بل لأنه «لم يتمكن» من أن يمنحك صوته وليس لأنه لم يشأ.

وبدا الارتباك على فيليب عندما سمع هذا الاعتراض، فقال متداركاً: لم أعنِ أنه قصد ذلك عمداً. لا بأس على كل حال، لا بأس يا ستيلا. لم ألقَ في حياتي إلى الآن سوى الفشل، ولكني سأفوز يوماً ما يا عزيزتي. إنني أجد قوة جديدة عقب كل هزيمة أمنى بها. سأعاود النزال بمراس أشد وأصلب وسأوفق يوماً، وسأكون سعيداً.

وكانت ستيلا عند وعدها الذي قطعته على نفسها من

أنه في حالة فشل فيليب في الانتخابات ستتولى هي نقل خبر اعتزامها الزواج إلى والدته. وما أن سمعت السيدة مونسيل هذه البشرى حتى تهلل وجهها بالفرح وهي تقول: أتعنين أن فيليب قد اعتزم أخيراً أن يقدم على ما كان يجب أن يفعله منذ أول أسبوع قابلك فيه؟

وعندما بدا الارتباك على الفتاة، استأنفت أمه تقول: أتعنين أنه وقع في حبك أخيراً؟

- هكذا يقول!

- إذن يجب أن تصدقيه، لأن فيليب لا يقول إنه أحب إنساناً إلاّ إذا كان قد حلل كل ذرة فيه. وبهذه المناسبة، أظنك تبادلينه الحب؟

- أجل.

- لماذا؟

فترددت الفتاة قليلاً ثم أجابتها: لا أدري؟

ورغم قناع الجد والوقار الذي كان يغطي وجه السيدة مونسيل فإن قلبها كان يفيض بشراً وسروراً لتطور الأمور بهذه الحال، واقترحت إعداد وليمة عشاء تعلن فيها الخطوبة.

* * *

في عصر اليوم المحدد للحفلة أقبل غلام يحمل رسالة من وارد يعتذر فيها عن عدم إمكانه الحضور لاضطراره إلى

تلبية دعوة عاجلة. ونجحت حفلة العشاء نجاحاً عظيماً، وفيما كان المدعوون يرتشفون كؤوسهم الأخيرة دق جرس الباب الخارجي، ونظراً لانهماك الخادم فينر في عمله أسرعت ستيلا وفتحت الباب لترى وارد. وخفق قلبها حين مدت يدها تصافحه، وسمعته يقول هامساً: أنا آسف جداً إذ لم أتمكن من الحضور. أما وقد انتهيت من عملي الطارئ فقد جئت لأقدم تهنئتي إليك، أعني إليكما!

- شكراً لك، وكم يعتبر تعطفاً منك تحملك مشقة المجيء في مثل هذه الساعة، ألا تدخل؟

- آسف، يجب أن أنصرف فوراً فما زالت لدي بعض الأعمال.

- لا بأس، ادخل لترى فيليب، لحظة واحدة حتى أدعوه.

- لا، لا، أفضّل ألا أراه حتى لا يصر على دخولي. أبلغيه تهنئتي، إلى اللقاء.

وأبصر بها فيليب وهي ترتد عن الباب فسألها عمن كان هناك. قالت: إنه وارد، وقد مر بنا ليقدم تهانيه.

- ولماذا لم يدخل؟

- لقد ألححت عليه ولكنه اعتذر وانصرف على عجل.

فتأبط ذراعها وسار بها إلى البهو وهو يقول: سندعوه

على حدة ذات ليلة، وأعتقد أنك قد خففت الآن كثيراً من نفورك منه.

فأجابته في اقتضاب: نعم!

❊ ❊ ❊

-٣-

لم تمض على هذه الحفلة أسابيع قليلة حتى ذاع في المدينة أن الدكتور وارد قد تطوع للانضمام إلى البعثة التي تتأهب للسفر إلى الأصقاع الجنوبية لارتياد القطب الجنوبي. واقترحت ستيلا على فيليب -لدهشته العظيمة- أن يجعل من هذه المناسبة مبرراً للحفلة الانفرادية التي يعتزم إقامتها لصديقه. وصادف أن كانت الليلة المحددة عاصفة ماطرة، ولكن العوائق الطبيعية ما كانت لتحول دون إنجاز وارد لوعده. وكان هذا الضيف الوحيد بجانب آل مونسيل: فيليب وأمه وخطيبته، وبعد أن تمتعوا بعشاء فاخر انتقلوا إلى غرفة الجلوس حيث أخذت ستيلا توقع بعض الأغاني المجرية على المعزف في صوت حنون تشوبه نشوة بادية. ولم تذكر السيدة مونسيل أن رأت ستيلا في مثل ما كانت فيه من سعادة وفرح في تلك الليلة، وكان فيليب لا يقل عنها دهشة واستغراب.

كانت العاصفة التي بدأت أثناء جلوسهم إلى المائدة قد اشتدت وزادت عنفاً، وفجأة دوى صوت هائل كهزيم الرعد وأقبل على إثره فينر كبير الخدم يعلن أن شجرة ضخمة قد سقطت على مقربة من جناح الخدم وأن إحدى النوافذ قد تحطم زجاجها وأصابت شظاياها إحدى الخادمات. وأسرع وارد إلى جناح الخدم تتبعه ستيلا فألقيا الخادمة تجلس على

مقعد والدماء تنزف منها في غزارة، فقال وارد لستيلا: لا بد من نقلها إلى المستشفى لأن الجرح عميق، اطلبي سيارة المستشفى تليفونياً. ثم قال: كلا، دعي الخادم يفعل ذلك وتعالي ساعديني.

وبعد أن أكملا الإسعافات الأولية الضرورية سمعاً صوتاً ينبعث خلفهما في هدوء: ألا يمكنني أن أفعل شيئاً؟

والتفتت ستيلا لترى فيليب يتأملها وهو ممتقع الوجه شاحب اللون فأجابت: كلا لقد انتهينا.

وحُملت الخادمة إلى سيارة المستشفى وأصر وارد على أن يصحبها، وما أن انصرفت السيارة حتى أسرعت ستيلا إلى حجرتها وارتدت ملابسها على عجل وغادرت المنزل متسللة من باب الخدم.

كانت العاصفة قد هدأت قليلاً وأخذ القمر يسترق طريقه بين فجوات السحب ليسطع من آن إلى آخر على الطرقات الخاوية. وأخذت ستيلا تجدّ في سيرها بين الحقول في اتجاه المستشفى حتى قابلت وارد في منتصف الطريق، ولم يتمكن هذا من إخفاء دهشته.

وبعد أن طمأنها على الخادمة سارا جنباً إلى جنب في طريق العودة إلى المنزل، وسمعها تقول له: ألا تحب السير في مثل هذه الليلة؟ إنها تذكرني بوطني حين تعصف الرياح على الدانوب؟

ولكنه تجاهل سؤالها وقال: ألا تخبريني أنتِ لماذا

خرجت لملاقاتي؟ أظننت أنني قد أجهل الطريق؟

- لا، ما ظننت هذا.

- إذن فلماذا؟

- لأنني أريد هذا. وفي هذا السبب الكفاية، أليس كذلك؟

وحين بلغا المنزل اتخذ وارد طريقه إلى الصالون وتبعته ستيلا بعد أن بدلت ثيابها، ولحقت بهما السيدة مونسيل وفيليب بعد قليل. وعادت ستيلا تستأنف الغناء والعزف وعاد للقوم انشراحهم، ولم ينصرف وارد إلاّ قبيل منتصف الليل.

وفي الصباح قابلت ستيلا فيليب في الردهة في طريقهما إلى المائدة، وبعد أن ألقى عليها تحية الصباح سألها في هدوء: أحقاً خرجت ليلة الأمس لتقابلي وارد وهو عائد من المستشفى؟

- أجل.

- لماذا؟

- لأنني أردت ذلك، وفي هذا السبب الكفاية، أليس كذلك؟

وتوقف فيليب عن السير قليلاً، ثم تدارك وأسرع يتبعها وهو يقول: طبعاً، بكل تأكيد يا عزيزتي.

* * *

بدأت ستيلا تدرك أنها لم تفهم فيليب على حقيقته بعد، ولاحظت في الوقت نفسه أن حاله قد تبدلت عقب إبحار بعثة وارد للقطب، ولكنها أخفقت في تبين العلاقة بين الأمرين. وكان التعليل الوحيد الذي خطر لها هو أن يكون سبب هذا التبدل وحدة فيليب وعزلته بعد غياب صديقه. وكم كانت دهشتها عندما قال لها ذات يوم: ستيلا، أتذكرين أنني وعدتك بأن أقترن بك إذا ما تحقق نجاحي في الحياة؟

- أجل، لقد سجلت على نفسك هذا الوعد ذات مرة.

- وسأبر به الآن وسأقترن بك قبل أن يتحقق نجاحي.

- إنك تدخل السرور على قلبي بهذا النبأ السعيد.

- هل تمانعين في ذلك؟

- كيف يا عزيزي؟ إنني على استعداد في كل وقت. ولكن هل أفهم من ذلك أنك بدأت تشك في مقدرتك على النجاح وعزمت أخيراً على أن تهجر السياسة؟

فأجابها في هدوء وقد ارتسمت على فمه ابتسامته العصبية المعهودة: كلا، لا أشك، ولكني وزنت الأمور فرأيت أن نجاحي إذا ما كنت مرتبطاً بك يكون أفضل مما لو كنت منفرداً.

- فهل النجاح إذن هو السبب الأول؟

فتطلع إليها في دهشة ووجوم وقال في لهجة مضطربة

يغشاها الحزن: حاشا أن يكون ذلك، بل إنني أحبك.

- سنقترن غداً إذا شئت أيها العزيز.

- إذن فقد سجلت أول نجاح لي في الحياة.

* * *

لكن كانت الحقيقة على النقيض من ذلك، إذ أن فيليب بزواجه هذا إنما سجل فشلاً جديداً وأضاف حلقة جديدة من حلقات التعاسة إلى سلسلة مآسيه. فقد ظن أنه بالزواج من ستيلا قد استراح نهائياً من أية منافسة تقوم بسببها، ولكنه نسي في الوقت نفسه ما يقتضيه الزواج من واجبات وما للزوجة من حقوق. فما انقضى شهر العسل حتى عاد فيليب إلى سيرته الأولى يطارد النجاح ويحاول تصيده عن طريق السياسة، فكان ينفق الساعات الطوال في مكتبه في تأليف المجلدات السياسية التي كانت تُهجر يوم تُطبع، أو الخطب الطويلة المملة التي كان يفرضها فرضاً على مستمعيه عندما تدعوه إحدى الجمعيات أو المنتديات للخطابة، ناسياً طول الوقت أن هنالك زوجة تعيش بمفردها في هذا القصر الكبير الموحش.

وكانت السيدة مونسيل تقيم في لندن وتتردد على زيارة القصر من آن إلى آخر، ولاحظت هذا الأمر خلال زياراتها، حتى إنها قالت لولدها ذات مرة تعنفه: لماذا تسعى -بالله عليك- لأن تكون عضواً في مجلس العموم؟ إن مثلك في هذا كمثل الأصم الذي يحاول أن يكون مدرساً للموسيقى. لماذا لا تنفق مالك ووقتك في إسعاد نفسك وزوجتك؟

وكان الرد الوحيد الذي يقدمه فيليب: إن حياة الخمول والكسل غير محببة إلى قلبي يا أماه، وإن أنكر الأمور إلى نفسي أن أنفق حياتي سدى. إنني أطمع في أن أكون أكثر من سيد ريفي يعيش من ريع أملاكه.

وعاد وارد أثناء ذلك من الأرجاء القطبية، ولاقت البعثة من الصحافة والجماهير استقبالاً حسناً. ودعا فيليب صديقه إلى حفلة عشاء ابتهاجاً بحضوره، ولاحظ وارد إقبال مضيفه على الشراب بإفراط حتى لقد استولى عليه النعاس مبكراً، الأمر الذي لم يكن يعهده فيه من قبل. ولم تغب عن عينيه علامات الشقاء التي بدأت تتسرب إلى هذا القصر الهادئ. وعندما نهض مودعاً أخبر ستيلا أنه قد اعتزم الانتقال إلى لندن وأنه رهن إشارتها في كل وقت. وإن دهش الزوجان لشيء خلال هذه الزيارة فإنما دُهشا لأن وارد لم يتحدث خلالها بأي شيء عن أعمال البعثة وعما أبداه خلال الرحلة من ضروب الشجاعة والجلد مما كان حديث القوم والصحف أياماً عديدة.

* * *

بعد انقضاء ستة أشهر على هذه الزيارة أصيب فيليب بأنفلوانزا حادة ألزمته الفراش، وتطيرت ستيلا عندما تبينت أن درجة حرارته في ارتفاع مستمر فصممت على استدعاء وارد. وعندما أفضت إلى فيليب بعزمها قال لها: لا بأس، ولكنه انتقل من عيادته القديمة إلى أخرى في حي بتنال جرين.

فقالت له بدهشة: ولكنك لم تخبرني بتغيير عنوانه في حينه.

فأجابها في هدوء وهو يتطلع إلى سقف الحجرة: ما كنت أحسبك مهتمة بشؤونه الخاصة.

وكان وارد عند حسن الظن به، فأخذ يتردد على القصر يومياً على دراجته ويعنى بصديقه عناية تامة حتى اجتاز دور الخطر وأخذ يتماثل للشفاء. وكانت ستيلا قد وقفت نفسها لتمريض زوجها والسهر على علاجه، وعادت السيدة مونسيل من رحلة في الخارج، وما أن علمت بمرض ابنها حتى خفت إلى القصر لتراه. وبعد أن انفردت به ساعة في حجرته نهضت لتعود إلى لندن. وفيما كانت ستيلا تودعها بالباب، قالت لها وهي تبتسم ابتسامة ذات معنى: لقد أفضى إليّ فيليب بالمجهود العظيم الذي بذلته في تمريضه والعناية به، وأرجو أن يكون وجود الدكتور وراد قد خفف كثيراً مما لاقيته من عناء ونصب.

وبمغادرة فيليب لفراش المرض انقطعت زيارات وارد وقد أدى واجبه حق الأداء، وظل بعيداً عن القصر عدة أسابيع حتى تلقى من فيليب ذات يوم كتاباً يقول فيه:

منذ توفي السيد جرينجر نائب مدينتنا الحالي وأعلنت عزمي على أن أرشح نفسي في الانتخاب الفرعي المقبل وأنا أتلقى بعض خطابات التهديد من آن إلى آخر، ولذا أرجوك أن تحضر لزيارتنا في أقرب وقت ممكن وأن

تحضر لي معك مسدسك، ولا تخبر ستيلا بذلك لأن المسكينة تعاني ضعف الأعصاب في الوقت الحاضر بما لم أعهده فيها من قبل.

وبادر وارد إلى تلبية رجاء صديقه، فحضر إلى القصر ذات ليلة، وبعد مقابلة قصيرة لفيليب في مكتبه حيث أعطاه المسدس خلسة طلب إليه هذا أن ينفرد بستيلا ويحاول فحص أعصابها.

وكانت ستيلا، كما ذكر زوجها، بادية الاضطراب محطمة الأعصاب، وما أن انفردت بوارد حتى أخذت تشكو له ما تلاقيه من فيليب، فهو يحجز نفسه في حجرته الساعات الطوال ويتركها بمفردها في هذا القصر الموحش ولا يتحدث إليها إلاّ بالضروري من الكلام، وكلما التقت أنظارهما ألفت في عينيه بريقاً لا ينم إلاّ عن جنون دفين. وعندما أرادت أن تسلي وحشتها ابتاعت قطة صغيرة لتدللها وتفيض عليها عطفها وحنانها فوجدتها بعد أيام مغرقة في بركة الحديقة. وبعد أن قامت ببعض التحريات السرية علمت أن الذي ارتكب هذه الفعلة المنكرة هو أحد البستانيين بإيحاء من زوجها وتحريضه، وحين واجهته بالأمر أنكر!

وأخذت الدهشة وارد حين سمع هذه القصة ولم يلبث أن سألها: ولأي سبب يقدم على قتل قطة بريئة؟

فأجابته على الفور: غيرة وحقداً، لأنني بدأت أجد فيها سلوى تصرفني عنه.

ولم يجد وارد ما يقوله سوى أن يهدئ من تأثرها، ووعد بأن يعود لزيارتهما مرة أخرى.

ولم يمضِ أسبوع على هذه الزيارة حتى فوجئ وارد برؤية ستيلا في عيادَته عصراً، وكانت في حالة من الاضطراب يرثى لها. وما أن رأته حتى قالت: لقد حضرت إلى لندن على ألا أعود للقصر ثانية. إما أن يكون فيليب مجنوناً وإما أن أكون أنا قد فقدت صوابي!

- لا هذا ولا ذاك، ولكن هي أعصابك.

- هكذا توقعت أن أسمع منك.

- ولكن ما الذي حدث؟

فأخذت تروي على مسامعه ما كان يفيض به قلبها من هموم وتؤكد له أن زوجها قد تبدّل تماماً وأنه قد فقد صوابه، وحدثته عن نظراته الشاردة التي يتطلع بها إلى ما وراء الوجوه أو الحادة التي يرمقها بها من آن إلى آخر، وهي تدل تماماً على أنه فقد سيطرته على أعصابه، بل وعقله! وأكدت لوارد أنها وجدته ذات مساء يُخرج من الخزانة ملابسها في منتصف الليل بعد أن أوت إلى فراشها. وحاول وارد أن يقنعها بأن ما رأته كان محض وهم أو خيال طارئ إلاّ أنها أكدت رأيها بحجة أنها عندما أخذت تغلق باب حجرتها بعد قلق الليلة المنكرة قابلها فيليب في الصباح مبتسماً وقال لها: أراك قد تحصنت في حجرتك!

وفيما كان وارد يطيب خاطرها ويجفف ما سال من دموعها ألقت بنفسها بين ذراعيه فجأة وهي تناديه باسمه لأول مرة في حياتها: وارد، ألا تنقذني من هذا الجحيم؟ ألا تبقيني عندك كممرضة أو كخادمة؟

- ماذا تقولين؟ هل فقدت صوابك يا ستيلا؟! أتتركين ذلك القصر المنيف والنعيم المقيم لتعيشي هنا في هذا الحي الفقير بين جماهير العمال؟

- لكنك لا تعلم أي شقاء يحيط بي هناك.

- إن الواجب يقضي عليك بأن تبقي مع فيليب إلى آخر لحظة.

- لقد فقدته إلى الأبد بعدما قتل في قلبي محبته وعطفه.

- لا بأس، هذا لا يمنع من أن تصبري.

ردت ستيلا: ما عدت أطيق هذا الجحيم، وما قصدتك إلاّ لسببين: الأول أنني لا أعرف أحداً في هذه البلاد، فإذا صرفتني عنك أوصدت أبواب الحياة كلها في وجهي...

- والسبب الثاني؟

أطرقت برأسها قائلة: لأنني أحبك!

فضمها وارد إلى صدره بحنان وقبلها بحرارة، ثم انتفض فجأة كما لو كان قد أفاق من حلم عميق، وقال لها وهو يربت

على كتفها: إن فيليب يجتاز في الوقت الحاضر محنة شديدة هي المعركة الانتخابية، ولو تبين خصومه أي ثغرة في علاقته بك لأساؤوا استغلالها، وواجب الإخلاص يحتم عليك أن تعودي إلى القصر فوراً وأن تبذلي كل جهودك في سبيل فوزه حتى تنتهي هذه المعركة ونفكر في الأمر مرة أخرى، وإذا جدّ شيء فاكتبي إليّ.

- ولكنك لم ترد على خطاباتي الماضية؟

فسألها في دهشة: وهل كتبتِ إليّ؟!

- أجل، أربعة خطابات دون أن أتلقى منك رداً واحداً. يخيل إليّ أن فيليب قد وضعني تحت رقابة صارمة.

- لا بأس، ولكنك ستفعلين ذلك لأجلي.

- أجل، لأجلك أيها العزيز. ولكني لن أبقى في القصر يوماً واحداً بعد الانتخابات.

* * *

-٤-

انقضى على الزيارة أسبوع تلقت ستيلا بعده خطاباً من وارد يقول فيه:

إنني أتابع باهتمام ما تنشره الصحف عن جهادك العظيم مع فيليب في هذه المعركة، وكلما قرأت جديداً تفاءلت، وأرجو ألا تنقضي هذه المعركة حتى تكون السحابة القاتمة قد انقشعت وعاد لحياتك صفوها.

ستقوم بعثة جديدة إلى القطب وقد تطوعت فيها، وستستغرق ستة أشهر. أرجو حينما أعود بعدها أن أجدك في حلل قشيبة من السعادة.

وارد.

وسمعت وقع قدمي فيليب في البهو فألقت بالكتاب في نار الموقد وانصرفت إلى حجرتها لتكتب له الرد.

* * *

وكلما قرب يوم الانتخاب ازدادت الحركة نشاطاً في المدينة وعظم نشاط المرشحين، ولم تدّخر ستيلا وسعاً في مساعدة زوجها ومعاضدته وبذلت في هذا السبيل جهوداً جبارة، فكانت تظهر إلى جانبه في المجتمعات والولائم وفوق

منصات الخطابة تبادله الابتسامات المشجعة وتزوده بعبارات التحبيذ والتأييد دون أن يخطر على قلب أحد من المشاهدين أن هذا القناع الزائف للسعادة الزوجية يخفي وراءه تعاسة دائمة وشقاء مقيماً.

وفي اليوم الموعود تهافت الناس على صناديق الانتخابات يودعونها أصواتهم، وأمضى فيليب وزوجته هذا اليوم في كفاح ونضال وحركة دائمة حتى أقبل المساء. ثم عاد فيليب إلى القصر متعباً بينما انصرفت ستيلا إلى مقر اللجنة الانتخابية لتحضر عملية فرز الأصوات نيابة عن زوجها. وتمّ الحصر وأعلنت النتيجة في ساعة متأخرة من الليل، وفاز فيليب بمقعد النيابة على شاسنجفورد، ووقفت ستيلا تستقبل تهاني الأصدقاء والأنصار ثم أسرعت إلى الهاتف لتنقل البشرى لفيليب ولكنها لم تجده، فرجحت أن يكون نائماً.

وأسرعت فاستقلت إحدى سيارات الأجرة إلى القصر لتزف إليه البشرى بنفسها، واجتازت الحدائق في خطوات سريعة هادئة كي تجعل من حضورها مفاجأة. ولم ترتح عندما ألفت الظلام مخيماً على القصر وأوجست خيفة في نفسها، وعندما بلغت ردهة الدار لمحت ضوءاً ينبعث من غرفة المكتب فاطمأنت قليلاً وأسرعت إليها وفتحت الباب في هدوء.

كان فيليب جالساً في مقعد وثير على مقربة من المدفأة وقد تراخت يداه بجانبه وأطرق برأسه شأن المستغرق في نوم عميق. واقتربت منه ستيلا على أطراف أصابعها، ثم نادته في

هدوء ولكنه لم يستيقظ. وأعادت النداء، ولكنه لم يُجبْ! ولمست كتفه تهزه في هدوء فمال في مقعده، ولأول مرة وقعت أنظارها على صدره وأبصرت بالثقب الذي فيه والدماء التي تلطخ سترته.

ولم تتمالك نفسها من رؤية المشهد فأطلقت صرخة منكرة اهتزت لها أرجاء المنزل على اتساعه، وبلغ من شدتها أن أيقظت فينر الخادم الأصم!

* * *

دوى صدى الحادث في البلاد من أقصاها إلى أقصاها، ورغم كثرة الأقاويل والتكهنات فإن الوقائع الثابتة التي روتها الصحف تتلخص فيما رأته ستيلا عندما دخلت غرفة المكتب، يضاف إلى ذلك أن باب الشرفة كان مفتوحاً وأنه عُثر بين شجيرات خميلة الورد المجاورة على مسدس، وأن فينر الخادم الكهل رغم أنه لم يسمع صوت الطلق الناري قد أدلى لرجال اسكوتلنديارد (الذين تولوا التحقيق تواً من بدايته) بمعلومات لها أهميتها.

وبعد أيام قليلة نُظرت القضية أمام القاضي المحلي. وكانت جلسة قصيرة تليت فيها المحاضر الأولية ثم أجلت أسبوعاً. وكانت الجلسة الثانية تماثل سابقتها قصراً، ولم تزد عليها إلاّ في المفاجأة التي قدمها رجال الشرطة للجماهير في آخر لحظة عندما أعلن كبير المفتشين أنه قد قبض على الدكتور أوبري وارد في ميناء برجن النرويجي بناء على برقية من إدارة

اسكوتلانديارد التي بعثت باثنين من مفتشيها تسلما الطبيب المعتقل وعادا به إلى إنجلترا. كما أعلنت الشرطة أن لديها من الأدلة ما يحملها على اتهام أوبري وارد بقتل فيليب مونسيل عمداً ليلة ٢٧ فبراير، وطلب من قاضي التحقيق أن يصدر أمره باستمرار حبس المتهم ثمانية أيام. ولم يسع القاضي سوى أن يوافق على هذا الطلب. وأعقب ذلك الخطوة التالية، إذ استكملت الشرطة أدلتها ونظرت القضية أمام قاضي الإحالة، وأحيل وارد إلى محكمة الجنايات.

ومرت الأيام والأسابيع وأقبل موعد القضية التي أقامت الجماهير وأقعدتها، وكان الاهتمام بها بالغاً خاصة وأن ممثلي الاتهام والدفاع كانوا من نخبة رجال القانون والمرافعة وأوسعهم حيلة وأعلاهم كعباً خاصة في القضايا الجنائية. وتلا المدعي العام عريضة الاتهام في الجلسة الأولى وأعطى في مستهلها صورة قريبة من الحقيقة للعلاقة بين ستيلا وفيليب وصلة الأخير بوارد، وكيف بدأت هذه العلاقة في الجامعة وانتهت في مدينة شاسنجفورد، ثم استأنف يقول: والآن سنلقي نظرة فاحصة على سير الحوادث خلال الشهر السابق لحدوث الجريمة، وسأقدم الشهود لأقيم الحجة على أن المتهم قد قابل السيدة ستيلا مونسيل في لندن دون علم زوجها المجني عليه، وأنها كتبت للمتهم عدة خطابات تناشده أن يحضر أو يضرب لها موعداً في لندن، وأن السيد فيليب مونسيل قد حال دون وصول بعض هذه الخطابات إلى الجهة المرسلة إليها. وهذه الحقيقة لا جدال فيها، وهي أن فيليب كان قد بدأ يشك في زوجته وشرع يتخذ الوسائل اللازمة لمراقبتها.

وفي يوم ١٧ فبراير (أي قبل الجريمة بعشرة أيام) ذهبت السيدة ستيلا إلى لندن وزارت المتهم في مستشفى بتنال جرين ومكثت معه من الخامسة بعد الظهر إلى العاشرة ليلاً، واضطرت أن تسرع في العودة لتدرك آخر قطار إلى شاسنجفورد. وبعد أسبوع من هذه الزيارة كتب المتهم إليها خطاباً أعدمته فوراً بعد تلاوته وبادرت بالرد عليه، ولا جدال أننا جميعاً نود أن نعرف ماذا كانت محتويات ذلك الكتاب، وربما أفادت الأدلة التي سنقدمها في تلخيص جانب من محتوياته.

وننتقل الآن إلى يوم الجريمة بالذات، وهو اليوم الذي أجري فيه الانتخاب الفرعي في المدينة والذي كان السيد فيليب يعاني فيه أشد حالات التعب والإرهاق حتى بلغت به الحال بتوكيل زوجته لتنوب عنه لحضور عملية فرز الأصوات النهائية. ماذا حدث في المنزل أثناء تحول الأنظار جميعها إلى لجنة الانتخاب والتلهف على نتيجتها؟ يمكنني أن أجيب على هذا السؤال ببضع جمل مختصرة: إن الخادم فينر يقرر أن المتهم قد حضر في الساعة الثامنة إلاّ الربع وذهب به رأساً إلى السيد فيليب في مكتبه، وانصرف الخادم بعد ذلك إلى المطبخ حيث تناول عشاءه ثم عاد إلى غرفة المكتب ليعتني بنار الموقد (وهي عملية يكررها كل ساعة تقريباً)، وما أن فتح باب الغرفة حتى أبصر بسيده والمتهم يقفان وجهاً لوجه، ولم يسمع شيئاً مما كان يدور بينهما من حديث إلاّ أنه أدرك بوضوح من وجهيهما أنهما كانا في خصام ومشاجرة. وكان من الطبيعي أن قضى الخادم عمله مسرعاً ثم انصرف لفوره،

وعلى حد علم المحققين كانت هذه آخر مرة شوهد فيها السيد فيليب حياً من أي إنسان فيما عدا المتهم أوبري وارد.

وانصرف الخادم إلى غرفته في الطابق الأعلى ليعد شؤونه، وقبل الساعة الحادية عشرة خطر له أن موعد ظهور نتيجة الانتخاب قد أوشكت، فنزل إلى الطابق الأرضي واتجه رأساً إلى الحجرة القريبة من المكتب، وهناك أخذته سِنة من النوم ولم يلبث أن استيقظ على صرخة منكَرة، فأسرع إلى حجرة المكتب حيث وجد السيدة ستيلا مغمى عليها بجوار جثة زوجها.

واستطرد بعد ذلك يصف إجراءات الشرطة وكيف عثروا في الخميلة المجاورة على مسدس غريب الشكل عليه الحروف الأولى من اسم المتهم الذي لم يسعه أن ينكر أنه مسدسه. ثم قال: وسوف تتبينون بعد ذلك التعليل الذي يقدمه ليبرر به وجود المسدس هناك، وإن الاتهام لمقتنع بأن المتهم قد قتل فيليب مونسيل بين التاسعة مساء ومنتصف الليل ثم فر من نافذة الشرفة التي وجدت مفتوحة حين اكتشفت الجريمة وسقط منه المسدس في الخميلة بسبب سرعته، وهناك آثار لقدميه في طرقات الحديقة تؤدي إلى الدرب الخلفي الذي ترك فيه دراجته.

وأتى على ذكر تفاصيل تنقلات المتهم عقب الحادث مباشرة مدعمة بشهادة الشهود منذ غادر المدينة حتى بلغ ميناء هيل ليدرك الباخرة المقلعة إلى بلاد النرويج، حيث كان جواز سفره وتذكرة السفر معدَّين. واختتم مرافعته قائلاً وهو

يضرب بقبضته على المنصة التي أمامه: هذه ليست بالجريمة العادية التي يرتكبها رجل ضعيف تحت تأثير ثورة عارضة، بل على النقيض من ذلك هي جريمة أُحكم تدبيرها وتقديرها ونفذت بجرأة وإقدام. إنها جريمة رجل يجمع بين قوة التدبير وقوة الإرادة، رجل غادر لندن وهو معتزم قتل صديقه فحشا مسدسه بالرصاصات القاتلة وابتاع تذكرة الباخرة التي ستغادر به البلاد وتقصيه عن مسرح جريمته، فإذا كان هناك أيها السادة قتل يمكن أن يوصف بأنه القتل عمد فهو هذا!

وأعقب ذلك مناقشة الشهود الذين استند إليهم الاتهام، وكان أولهم الخادم فينر الذي جاءت أقواله مؤيدة لما ذهب إليه النائب العام وآخرهم الطبيب الشرعي الدكتور هاردي، فوصف كيف استدعي بعد منتصف الليل لمعاينة الجثة. وبعد أن أدلى بشهادته من الناحية الطبية الفنية أخذ الدفاع يناقشه قائلاً: ذكرت في تقريرك أن الطلق الناري الذي قضى على القتيل قد أطلق عليه برأيك من مسافة ستة أو سبعة أقدام.

- أجل.

- وكيف وصلت لهذا الرأي؟

- من حالة اللحم المحيط بالجرح.

- ومن هذا يمكنك أن تؤكد بأنه لا يمكن أن يكون المجني عليه قد أطلق النار على نفسه؟

فأجاب الدكتور هاردي: إنني أتحاشى دائماً أن أؤكد شيئاً

ما، وحسبي أن أذكر رأيي الذي اقتنعت به دون أن أتعصب له أو أحاول فرضه على الغير. ورأيي في هذه الحالة بالذات هو أنه من المتعذر جداً أن يكون السيد فيليب قد أطلق النار على نفسه.

- لنفرض أنه فعل ذلك، هل كانت الوفاة تحدث فوراً؟

- تقريباً.

- ماذا تعني بقولك «تقريباً»؟

- أعني فترة يسيرة جداً كدقيقتين ربما.

- هل يستطيع إنسان أصيب بمثل هذا الجرح أن ينهض من مكانه ويسير بضع خطوات باذلاً في ذلك الجهد ما يفوق الطاقة البشرية؟

أجاب الدكتور هاردي: إنني بالمثل أتحاشى دائماً أن أقطع باستحالة شيء، وكطبيب لا أعرف ما هو الجهد الذي يفوق الطاقة البشرية.

- ما أقصده بسيط، هل هناك ما يمنع من أن يخطو السيد فيليب بضع خطوات بعد أن أصيب بهذا الجرح؟

- لا أرى ما يمنع من حدوث ذلك، فلو أنه كان سائراً في الغرفة في اتجاه ما ثم أصيب بهذا الطلق الناري فليس هناك ما يمنع أن يستمر بضع خطوات أخرى في نفس الاتجاه قبل أن يسقط على الأرض، وذلك بحكم القوة الدافعة.

ثم أخذ المتهم بعد ذلك مكانه في مقعد الشهود وبدأ يدلي بأقواله فقال: كنت قد اعتزمت السفر إلى ميناء هيل لأبحر منها إلى بلاد النرويج، إلاّ أنني تلقيت صباح ذلك اليوم برقية من المجني عليه فحواها: "أيمكنك الحضور الساعة الثامنة من مساء اليوم لأمر هام وعاجل؟". وإزاء ذلك لم أرَ بداً من أن ألبي هذا الرجاء وقد صدر من صديق قديم، غير أنني لاحظت أن تحديد الساعة الثامنة للزيارة لا يمكنّني من العودة إلى ميناء هيل، وخطر لي أن أفضل حل لهذا المأزق هو أن أحضر إلى شاسنغفورد على دراجتي وأن أتابع رحلتي من هناك إلى الميناء بعد انقضاء الزيارة. فغادرت منزلي في الساعة السادسة مساء، وبلغت القصر بعد الثامنة بدقائق فقادني الخادم إلى غرفة المكتبة حيث كان سيده، وتصافحنا كأحسن ما يعمل صديقان حميمان. وكان أول ما لفت نظري بطبيعة الحال هو وجوده في المنزل أثناء عملية فرز الأصوات الانتخابية، ولكنه اعتذر عن الذهاب بتوعكه. وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث بعض الوقت وكان حديثاً عادياً، وأخذت الدهشة تنتابني شيئاً فشيئاً، وكنت على وشك أن أسأله لماذا أبرق إليّ يستقدمني عندما هبت العاصفة فجأة، وبغتة أثار مسألة ما وأخذنا نتشاجر.

- ألديك اعتراض على أقوال الخادم فينر من أنه قد رآكما متحفزين وجهاً لوجه عندما دخل الغرفة؟

أجاب المتهم: لا اعتراض لديّ، فقد ذكر الحقيقة.

- هل لنا أن نستفسر عن المسألة التي أثارها فيليب فجأة

وأدت إلى الشجار؟

أجاب وارد: لا أريد أن أتعمق في تفاصيلها، وإنني كطبيب في نفس الوقت أقرر أن صديقي الفقيد لم يكن يعي ما يقوله. لقد أثارتني أقواله في بادئ الأمر (وكان ذلك في اللحظة التي دخل فيها الخادم) ولكني لم ألبث أن تمالكت نفسي وتبينت أنه في حالة غير اعتيادية.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لم يطل به الهياج وسرعان ما هدأ، وبعدها تابعنا حديثنا الودي، وفي منتصف الساعة الحادية عشرة نهضت لأنصرف. وقد رجاني أن أخرج من باب الشرفة وأقفز منها إلى الحديقة (وهي ليست بالعالية) معتذراً بأن الخادم فينر قد أوى إلى فراشه متعباً بعد أن قضى يوماً عصيباً وأن في إحضار المفاتيح منه إرهاقاً لا مبرر له، ولم أجد ما يمنع من تلبية مثل هذا الرجاء، بل ولم أشكّ فيه وقتئذٍ.

- أرجو أن تدرك تماماً أن إخفاء موضوع المشاجرة عن المحكمة من شأنه أن يؤثر في موقفك بالقضية.

- إنني أصر على استبعاد السبب مهما كانت العواقب، على أن هناك بعض الأمور أود أن أوضحها. فالمسدس الذي وجد هو مسدسي فعلاً ولكني كنت قد أعرته لفيليب منذ شهر بناء على طلبه، إذ كتب إليّ يقول إنه يتلقى بعض خطابات التهديد من آن إلى آخر، كما وأنه شاهد بعض اللصوص يحومون حول المنزل، وطلب مني أن أعيره مسدسي وأن

أحضره معي في أول فرصة.

- هل تحتفظ بهذا الخطاب؟

- كلا، بل مزقته كغيره من الخطابات العادية.

- ألم تخبر أحداً بذلك؟

- ولماذا ؟ لا، لم أخبر أحداً.

- حتى ولا السيدة ستيلا مونسيل نفسها؟

- لقد رجاني فيليب عندما سلمته المسدس ألا أخبر زوجته بذلك كي لا أثير مخاوفها، واستحسنت هذا الرأي فلم أخبرها.

وبدأ ممثل الاتهام يضيق عليه الخناق في أسئلته شيئاً فشيئاً، ثم عاد فجأة إلى موضوعه الأول فسأله: ماذا كان محور الشجار بينكما؟

- ما زلت أصر على كتمان أسباب المشاجرة وتفاصيلها.

- هل لي أن أوفر عليك العناء فأذكر أن السبب هو اتهامه إياك بوجود علاقة غير بريئة بينك وبين زوجته؟

- إنها لفرية أثيمة.

- هل تنكر أن السيدة ستيلا كانت موضوع الشجار؟

- بل أنكر أن بيني وبينها علاقة غير بريئة، وهذا ما عنيته بقولي إنها فرية.

- حسناً، نستنتج من هذا أنها كانت موضوع الشجار؟

لم يجب المتهم على هذا السؤال، فالتفت المدعي العام إلى هيئة المحكمة وقال: نكتفي بهذا القدر من مناقشة المتهم، ولنستمع الآن لشهود النفي الذي أعدهم الدفاع.

كانت شاهدة النفي الأولى هي ستيلا مونسيل. أخذ محامي الدفاع يناقشها في أطوار القضية المختلفة وكيف عثرت على الجثة وما إلى ذلك، وكانت ستيلا تجيب في تؤدة وهدوء وبدا تملكها لأعصابها واضحاً جلياً. انتهى الدفاع من أسئلته ونهض المدعي العام بدوره، وسرعان ما تبدلت حالها وتخاذلت في بدء الشهادة، كالملاكم الذي يصاب بلكمة قاضية في الجولة الأولى، وذلك عندما ألقى عليها سؤاله الأول قائلاً: ماذا كانت علاقتك بالمتهم؟

أجابته بلهجة مضطربة يغشاها شيء من الانفعال الظاهر: كنا أصدقاء.

- فقط؟

- أجل.

- هل أنت واثقة من ذلك؟

- نعم.

وبدأ المدعي العام يتلو كتاباً مرسلاً منها لوارد، ثم ثانياً وثالثاً، وأخيراً سألها: هل تعتبرين هذه الخطابات مجرد رسائل من صديق إلى آخر؟

- كنت أناشده العون، وكنت دائماً أكتب إليه وأنا في حالة عنيفة من الانفعال والضيق، ولذا ليس من الإنصاف أن تفسر هذه الخطابات تفسيراً آخر.

- ولكن ألا ترين أن إطلاع زوجك عليها قد يثير الشك في نفسه؟

- ربما، وما كان يجدر بي أن أكتب هذه الرسائل.

- هل كانت حقائبك معدة للرحيل؟

- أحياناً.

- هل كنت سعيدة مع زوجك؟

- أجل، وقد أقبلت على مساعدته أخيراً.

- هل كان ذلك بعد زيارتك للمتهم في عيادته في اليوم الثاني والعشرين؟

وترددت ستيلا قليلاً ثم أجابت: أجل، وهو الذي نصحني بأن أبذل جهدي لمساعدة زوجي.

- حسناً، لننتقل الآن إلى نقطة أخرى لا تقل أهمية. ماذا كانت خططك ليلة الانتخاب بعد أن أعلنت النتيجة؟

- عدت إلى المنزل لأخبر زوجي وأبادله التهنئة.

- وماذا بعد ذلك؟ أو بالأصح، ماذا كنت تنوين عمله بعد ذلك؟

والتزمت ستيلا الصمت، فاستأنف الرجل يقول: لقد كانت مساعدتك لقرينك في الأيام الأولى من الانتخابات فاترة جداً إن لم تكن معدومة؟

- أجل.

- إلى أين كنت تنوين الذهاب؟

فأجابت بعد فترة قصيرة: إلى النرويج حيث كنت أنوي اللحاق بوارد، ولكنه لم يكن يعلم بذلك... أقسم أن وارد لم يكن يعلم بذلك.

- ألم يحدثك المتهم مطلقاً، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عن موضوع ترك قرينك أو التخلص منه؟

- لم نفكر، بل لم يحلم أحدنا بذلك مطلقاً.

- حسبك أن تجيبي عن نفسك فقط.

- إنني أصر على عبارتي لأنني واثقة من أن وارد، الدكتور وارد، لا يفكر أبداً في...

فقاطعها النائب قائلاً: هدئي من روعك قليلاً. ما قولك في هذا الخطاب الذي وجد في حيازة المتهم عندما قبض عليه، وهو مؤرخ في يوم السبت السابق ليوم الجريمة وموقع باسم ستيلا:

عزيزي الأعز،

لقد جعلني خطابك أتعس امرأة على وجه الأرض. لقد قرأته مرة واحدة وعلى وجه السرعة لأنني سمعت

وقع خطوات خارج الغرفة فاستولى عليّ الذعر وألقيت بالخطاب إلى نار الموقد. لماذا صممت على أن تقوم بهذا العمل المزعج؟ أما من وسيلة أخرى؟ إنني أكاد أفقد صوابي كلما ذكرت هذا الأمر وقدّرت ما أنت مقدم عليه، ألا تفكر لحظة واحدة في الأخطار المحيطة بي، إنني أرتعد من هولها. إذا حضرت للقصر فأناشدك الله أن تتحاشاني ما أمكن وإلاّ فقدت سيطرتي على أعصابي وافتضح كل شيء.

إلى اللقاء أيها العزيز.

من الملخصة دائماً: ستيلا

- والآن، هل هذا الخطاب صادر منك؟

- نعم.

- هل لي أن أسألك عن هذا «العمل المزعج» الذي كان المتهم قد اعتزم الإقدام عليه وذكره في خطابه الذي ألقيت به في النار؟

- الانضمام إلى البعثة الاستكشافية الجديدة.

- إذا صح هذا فلماذا أخفيت الخطاب عن زوجك؟

- ما أردت أن يعلم بأن هنالك مراسلات متبادلة بيننا.

- إذا كان العمل المزعج هو الذهاب إلى القطب الشمالي فما معنى قولك له «أما من وسيلة أخرى»؟

- أعني ما من وسيلة أخرى لإرضاء روح المغامرة التي

تفيض بها نفسه دائماً؟

- وهل بلغ خوفك على حياته هذا المبلغ الذي تصفينه في خطابك؟

- نعم.

- وهل ما زلت تصرين بعد ذلك على أنكما مجرد صديقين؟

أجابت ستيلا بصوت خافت لا يعدو الهمس: أنا أحبه.

- إذن فالعبارة التي ذكرتها في بادئ الشهادة من أن علاقتكما لا تعدو العلاقة بين أي صديقين كانت غير صحيحة؟

- أظن ذلك.

- بل غير صحيحة أبداً، أليس كذلك؟

فصاحت ستيلا بانفعال: حسناً، لقد بذلت جهدك لنصب هذا الشرك لي وإيقاعي فيه، وقد نجحت في ذلك.

واحتج المدعي على صدور هذا التعبير من الشاهدة ثم أعلن انتهاء المناقشة. واستمرت المحكمة بعد ذلك يومين آخرين تستمع لأقوال بقية شهود الدفاع، وفي اليوم التالي بدأ السير جون همبدج محامي وراد مرافعته، فناشد هيئة المحلفين أن يتدبروا القضية على ضوء المنطق لأنها إحدى القضايا التي تقوم فيها أهم دلائل الاتهام على ظروف طارئة.

لقد وجد فيليب مونسيل مضروباً بالرصاص ولا يوجد شاهد رؤية يروي ما حدث، ولذا يجب أن نركن إلى المنطق الذي يقول بواحد من ثلاثة: الانتحار أو الفشل أو القضاء والقدر. وليس من شأن هيئة المحلفين أن تفترض الطريقة التي لقي بها فيليب حتفه، كما وأنه ليس من شأنها أن تعدم رجلاً لمجرد أن ظروفه وملابساته تتفق وبعض النظريات الوهمية التي يسكبها أناس لا هم لهم إلاّ ابتكار النظريات الإجرامية وإتقان سبكها وحبكها، وما دام الشك والترجيح يقومان في القضية فواجب الهيئة أن تعلن عدم إدانة المتهم فوراً. وأخذ يناقش تفاصيل القضية، فأبدى أسفه على أن وارد قرر كثيراً من الحقائق التي لم يستطع إثباتها، فهو لم يبرز مثلاً ذلك الخطاب الذي كتبه إليه فيليب يستعير مسدسه، ولو ظهر هذا الخطاب لسقط الاتهام من أساسه. ولكن للأسف، إن السواد الأعظم من الناس لا يحفل بالاحتفاظ بمثل هذه الرسائل التي لا أهمية لها لمجرد أن الإنسان لا يمكنه أن يتصور نفسه متهماً بعد شهور أو أسابيع، وأن نجاته متعلقة بوجود هذا الخطاب. وليس هناك ما يبرر هذه الشكوك التي يقيمها الاتهام على ذهاب المتهم للقصر على دراجته، فتاريخ وارد حافل بحبه للمغامرات مليء بالحوادث المشابهة، ويكفي للتدليل على ذلك تطوعه مرتين لبعثة القطب الاستكشافية.

وانتقل المحامي بعد ذلك إلى علاقة المتهم بستيلا، فقال إن القضية غير معروضة على محكمة أخلاقية بل على محكمة الجنايات، وإن تعلق السيدة ستيلا مونسيل برجل خلاف زوجها ليس معناه أن هذا الرجل يشرع فوراً في التفكير بقتل

زوجها، وما يقدمه الاتهام ليثبت به وجود الدافع أو المحرك للجريمة في نفس وارد ليس سوى مجموعة من التكهنات والخيالات التي لا يستسيغها العقل أو يتسامح فيها المنطق. واختتم مرافعته بقوله: إن الاتهام لم يقدم دليلاً واحداً يكفي للإدانة، وإنني لمندهش كيف أن هذه القضية قدمت لهيئة المحكمة رأساً، وما أبداه شهود الاتهام من أقوال لا يكفي لتكميم كلب ناهيكم عن إعدام طبيب له مكانته في المجتمع، ولم يرَ أحد المتهم يرتكب الجريمة المنسوبة إليه وليس هناك سبب واحد يبرر ارتكابه لها. إن ما أبداه من أقوال وحقائق -رغم عجزه عن إثباتها مادياً- لم يقدم الاتهام ما يدحضها أو يهدمها. لذلك أناشد هيئتكم الموقرة أن تبادر بإعلان براءة هذا الرجل الذي رفع رأس بلاده في الماضي والذي يوشك أن يشرفها في المستقبل مرة أخرى.

وكانت مرافعة الاتهام آخر صفحات هذه القضية، وكان محورها علاقة وارد بزوجة المجني عليه. وقد أخذ يفسر هذه العلاقة ويحللها ويتدرج في وصف تطورها حتى قال: لقد أعلن الدفاع أنه لا محرك لهذه الجريمة، ولكن الدافع أو المحرك موجود أيها السادة. فإنه إذا قامت علاقة غير بريئة بين اثنين وكان هناك ثالث يقف حجر عثرة في طريق حريتهما المطلقة، فلا يمكننا أن نشك مطلقاً في أن هذا الوضع هو وحده وبنفسه المحرك والدافع إلى التفكير في إزالة هذا الشخص الثالث من عالم الوجود. وأود الآن أن أذكر لهيئة المحلفين الموقرة مسألتين من شأنهما أن يلقيا ضوءاً على

موضوع الدافع. لماذا غادر المتهم الغرفة من الشرفة؟ ما لم يكن الغرض هو أن يحتجب عن الأنظار. إن ما يؤكده من أنه فعل ذلك كطلب المجني عليه أمر يفتقر إلى دليل، وهو عندي تعليل ضعيف لا يستحق المتهم التهنئة على ابتكاره. أما المسألة الثانية فهي الخطاب... وأخذ النائب يركز مرافعته في محتويات الخطاب قائلاً: إن تفسير بعض العبارات الغامضة الواردة فيه بما لا يلائم مصلحة المتهم إنما هو أمر يتفق وبقية القضية وملابساتها. أما فكرة الانتحار بأن يقدم رجل على قتل نفسه دون أن ينتظر بضع دقائق ليتأكد له إن كانت أمنية حياته قد تحققت أم فشلت فأمر لا يقبله العقل. ولماذا ينتحر ونتيجة الانتخاب لم تعلن بعد؟ وإذا كان قد انتحر فلماذا يكلف نفسه مؤونة إلقاء المسدس من الشرفة إلى الحديقة؟

لقد تكلم شهود النفي كثيراً عن أعصاب السيد فيليب وحدتها وسرعة فقدان توازنها، ولكني أرى إن هذا الوصف المبالغ فيه لم يمنعه من أن يرشح نفسه لمجلس العموم وأن يخطب في الجموع الحاشدة ويقف بشجاعة ليواجه الرجل الذي أغرى زوجته وحطم سعادته العائلية.

ولم يطل الأمر بهيئة المحلفين، فلم تلبث أن أصدرت قرارها بإدانة المتهم، ونطق القاضي بالحكم: «بإعدام أوبري وارد شنقاً»!

* * *

-٥-

عادت ستيلا إلى القصر لتجمع حوائجها وتستعد للرحيل، خاصة بعد أن تبينت أن فيليب قد أوصى بكل ثروته لأمه. وتلقت ستيلا في اليوم التالي لوصولها إلى القصر كتاباً من سيدة تدعى السيدة بودن تدعوها لتنزل في ضيافتها في لندن قائلة لها: "لقد أسدى الدكتور وارد لابني الوحيد معروفاً لا ينسى، فقد كان بالمثل عضواً في البعثة القطبية وأنقذه وارد من موت محقق، أما وإن عطفك على وارد لا يقل عن إشفاقي عليه فإنني أدعوك لتنزلي في ضيافتي كيفما تشائين وحتى تدبري أمورك". فلم تجد ستيلا مناصاً من أن تقبل الدعوة.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الدفاع فإن محكمة النقض رفضت الدعوى وحددت الساعة التاسعة من صباح يوم ٥ أغسطس لتنفيذ حكم الإعدام في سجن هالوي الذي كان ينزل فيه المتهم.

* * *

ومرت الأسابيع الثلاثة الباقية سراعاً. وكانت ستيلا قد لازمها الأرق في الأيام الأخيرة حتى بدت هالتان من السواد حول مقلتيها، وما أن غابت شمس اليوم الرابع من أغسطس

حتى أخذت تعاني أزمة نفسية عنيفة، وبعد جهد عظيم حملتها السيدة بودن على الذهاب إلى فراشها. على أن السهاد لازمها مرة أخرى، وكلما مرت بها الساعات ضاقت بها الدنيا. وسمعت الساعة تدق الواحدة بعد منتصف الليل فأرسلت صرخة خافتة وهبت من فراشها مذعورة وهي تقول: بقيت ثماني ساعات لا غير! وتسللت إلى حجرة المكتبة في هدوء تحاول أن تخفف عن نفسها بالمطالعة، فوجدت على المنضدة كومة من الرسائل التي كانت ترسل تباعاً إلى القصر ثم تحول إلى عنوانها الجديد.

كانت السيدة بودن قد كفتها مؤونة فتحها، إذ فضت أغلبها من قبل. وأخذت ستيلا تتصفح البعض منها فوجدتها على نوعين، وجلها من مجهولين. فبعضها يتضمن عبارات العزاء والتشجيع والبعض الآخر يحمل إليها اللعنات والسباب. وتهالكت في مقعدها لا تلوي على شيء، ولفت نظرها بين كومة الرسائل وجود طرد صغير الحجم لم يفتح بعد، فتناولته ومزقت غلافه، فإذا به يحتوي خطاباً ومفكرة متقنة التجليد. توقفت أنفاسها عندما وقعت أنظارها على هذا الخطاب:

> تجدين مع هذا مفكرتي الخاصة التي أودعتها ذكرياتي وسوانحي، وحين تصل هذه الهدية إلى يديك الجميلتين سيكون كل شيء قد انتهى وحل يوم الدينونة وتحقق نجاحي الأول والأخير، وثقي أنني وقتئذٍ أكون قد صفحت عنكما وعن نفسي.
>
> لقد سجلت بعملي هذا مهارتي وسعة حيلتي التي بزت

رجال الشرطة وخدعت بها قضاة البلاد ومحلفيها ورجال القانون فيها.

ألقي نظرة فاحصة على غلاف هذه المفكرة، ألا ترين أنها فخمة؟ أتذكرين حين رجوتك في ديسمبر الماضي أن تكتبي لي خطاباً باللغة المجرية؟ كان ذلك من أجل هذه المفكرة، لقد بعثت بها إلى مصنع للتجليد ذائع الصيت في بودابست (وطنك المحبوب) كنت قد تعرفت عليه أثناء سياحتي، وبعد أن وثقت من أنه ليس بين مستخدمي المصنع من يعرف اللغة الإنجليزية أمرت أن تكسى المفكرة بغلاف فخم وتعاد من هناك يوم ٢٨ يوليو لتصل إليك في عيد ميلادك. وأكدت عليهم مراعاة الدقة في تنفيذ تعليماتي هذه. والآن عليك بالمفكرة فطالعي صفحاتها في تؤدة وروية لتري العجب العجاب.

فيليب

وبيد مرتعدة أخذت ستيلا تقلب صفحات المفكرة الصغيرة وقد سرت في جسمها رجفة باردة كأنما تلمس شيئاً بعيداً من عالم الموتى.

٤ يوليو: لا أدري لأي أمر خُلقت ضعيفاً، وليس ضعفي جسمانياً فحسب بل إنه يتناول الناحية الخلقية، إذ ينقصني الحزم والإقدام والجرأة التي تزين الرجال وتميزهم في هذه الحياة، فكم من مرة خذلتني شجاعتي وتخلت عني جرأتي. وقد أعيتني الحيل في تعويض هذا، ولكن جهودي ذهبت

هباء، وليس أدل على ذلك مما حدث صباح اليوم حين خرجت إلى الحديقة لأزجر أحد البستانيين وأفصله من العمل فوراً لذنب ارتكبه، وإذا به يبادرني بقصة طويلة، وقبل أن ينتهي منها كانت قواي قد تلاشت فلم أعد أقوى على زجره، ناهيك عن طرده وفصله، بل الأدهى والأمرّ أنني ألفيت نفسي أمنحه علاوة قدرها ثلاثة شلنات في الأسبوع لغير سبب. أراني مجرداً من الشخصية التي يجب أن يتحلى بها الرجل، ولذا فلا ألوم ستيلا إذا ما أحبت وارد لأنه رجل بمعنى الكلمة.

١٠ أغسطس: لقد أدركت الآن أنني أمقت وارد طول الوقت، أمقت طيبته وأكره صراحته وأحقد على السهولة والبساطة اللتين يشق بهما طريقه في معترك الحياة. فلا أنسى تلك اللحظة التي وقفنا فيها معاً بباب مبنى إدارة الجامعة في كامبردج ننتظر إعلان نتيجة الامتحان. لا أحقد على وارد لأنه نجح في ذلك اليوم وكان نجاحه مع مرتبة الشرف! لا، بل أحقد عليه للبساطة التامة التي واجه بها نتيجة الامتحان؛ فما كان ليبدو عليه أي تأثر أو اهتمام حتى لو كان راسباً، أما أنا فأبذل غاية جهدي وأضني نفسي ثم ماذا تكون النتيجة؟ الفشل!

١١ أغسطس: كنت أظن أنني قد فشلت في كل شيء إلاّ الزواج، أما الآن فقد تبين لي أن زواجي لم يكن بالمستثنى، ولو أن وارد أحب ستيلا وسعى لاغتصابها مني علناً لأنزلت عليه جام غضبي، ولكنه أشرف من أن يفعل ذلك. أجل، لن يفكر وارد في أخذها لأنها لي. يا إلهي! ما عدت أطيق

مواجهة تلك الشخصية التي طغت بسحرها على قلوب الناس فاستلبتها. كم أؤثر أن أموت كرجل على أن أعيش متحسراً كطفل ضعيف يدرج على هامش هذه الرجولة!

١٦ أغسطس: لماذا أتابع هذا النضال الفاشل؟ لماذا لا أحمل ستيلا إلى مكان بعيد لا ترى فيه وارد إلى الأبد، فليس ينقصني المال لتحقيق هذه الغاية؟ ولكن، ألا يكون هذا هو الهزيمة بعينها؟ لا، يجب أن أتابع النضال.

٢٩ سبتمبر: أخبرني وارد اليوم أنه يكره هذه الضجة التي تثيرها الصحف والجماهير حوله منذ عاد من الأصقاع القطبية، أليس من عجيب الأمر أن يكره الإنسان الشهرة التي تلاحقه أينما ذهب؟ لقد امتلأ قلبي بالحقد على وارد ولكنني لا أزدريه ولا أحتقره. أحقد عليه وأمقته لما يحرزه من ظفر بعد ظفر ونجاح يعقبه فوز، وفي الوقت نفسه لا أحتقره لأنه صادق فيما يدّعيه من كراهية الشهرة وزهده في الصيت.

٣٠ سبتمبر: شاهدت الليلة في السينما قصة رائعة من النوع البوليسي الغامض، حسنة السبك متينة الحبك، ومن غريب الأمر أن القصة تقوم على أساس فكرة معينة طالما راودت مخيلتي ونالت من ذهني، وأشد ما أخشاه أن تكون مشاهدة هذه القصة قد جعلت الفكرة أكثر وضوحاً وأعمق رسوخاً وأن يكون عقلي قد تفتح لما خفي منها وأدرك دقة تفاصيلها. إنها فكرة جبانة، ولكن -للأسف- آن لي أن أحققها! أما موضوع القصة فمؤداه أن ثرياً من أصحاب الملايين تبين أن زوجته الجميلة وسكرتيره الشاب يتبادلان

الحب في غفلة منه، فضاقت به الدنيا واعتزم الأمر، ولكنه دبر الأمر بحيث يبدو كما لو كان الحادث جريمة قتل ارتكبها السكرتير، فأعد المسرح وزوده بالأدلة والقرائن التي تشير جميعها إلى السكرتير الشاب ثم انتحر. وعندما استدعي رجال الشرطة وجدوا من الآثار والأدلة ما يدين السكرتير فقبضوا عليه وقدموه للمحاكمة. وكادت خطة الثري المنتحر أن تنجح وتسعد روحه بالانتقام من عدوه البريء لولا أن مؤلف القصة يتدارك الأمر في آخر لحظة ويبرز شخصية إضافية، شخصية لص كان يحاول السطو على منزل الثري في تلك الليلة فأبصر به وهو ينتحر، فيتقدم اللص ويدلي بشهادته، وبذلك تظهر الحقيقة وينجو السكرتير الشاب من حبل المشنقة. أليست الفكرة رائعة؟ انتحار يبدو كجريمة قتل يتهم فيها آخر وتثبت عليه ويعدَم من أجلها. لكن لن تكون في هذه الحالة شخصية اللص الإضافية التي أفسدت الخطة في القصة السينمائية. يا إلهي! إنني أشعر بتعب شديد، لقد ضقت ذرعاً بالحياة وضاقت الحياة بي، أعتقد أن عقلي سيتوقف عن التفكير بعد قليل.

٢ أكتوبر: لا أعتقد أن ستيلا تحبني، إنها تعطف عليّ بمثل ما تعطف على هرتها الصغيرة، إنني أحسن حالاً من صاحبنا الثري الذي شاهدته في القصة السينمائية لأن التفات زوجته لرجل آخر واهتمامها به دونه قد أثار غيرته وسخطه، أما أنا فلست من هذا في شيء، إنني رجل ضعيف لا يريد أن يكون ضعيفاً، ولن يكون.

٣ أكتوبر: لقد بدأت فكرة «الانتحار في قالب جريمة» تسيطر على تفكيري وتستحوذ على خيالي، وأراني أستسلم لها شيئاً فشيئاً. لعمري في أي طبقة من طبقات المعتوهين يضعني علماء الجرائم وأخصائيوها؟

٩ ديسمبر: لقد اختبرت نفسي اليوم فأمرت البستاني بإغراق القطة الصغيرة، لماذا؟ لأن شيئاً كان يحدّثني بأنها يجب أن تموت! ولكن لماذا لم أفعل ذلك بنفسي؟ والجواب على هذا السؤال يسير جداً: لم أفعله لأنه ليس في مقدوري. إن تفكيري وخيالي يسبقان استعداداتي الجسمية بمراحل. قد أفكر في القتل والجريمة ولكن جسمي لا يمكنه أن يقدم على ارتكابها. مسكينة ستيلا، كم أرثي لحالها حين تتفقد هرتها فلا تجدها! قد تبدو عبارتي هذه كأنها رياء ونفاق، ولكن الله يعلم أنها الحقيقة السافرة.

١٢ ديسمبر: أعلم أن النضال بيني وبين وارد هو نضال للموت، سأستخدم فيه كل ما يخطر لي من الحيل الشيطانية والمكائد الجهنمية. لتكن النهاية موتاً محققاً لي، ثم له، ولا أعتقد أن الحقد والكراهية قد تمكنا من إنسان بمثل ما تمكنا مني.

* * *

تهالكت ستيلا في مقعدها وأطبقت الكتاب وأخذت تحدق فيه وهي مشدوهة لا يفصلها عن الجنون سوى القليل، وسألت نفسها ما إذا كان عقلها ينحدر رويداً رويداً

إلى الجنون. وعادت إلى رشدها بعد قليل، فاستجمعت قواها وقرأت بضع صفحات أخرى من الكتاب. اهتزت في مكانها فجأة ومدت يديها في شكل عصبي وقد تقلصت قبضتاها كما لو كانت تحاول أن تزيح سحابة كثيفة تتجمع أمامها، وتطلعت إلى ساعتها فإذا بها الخامسة والنصف. دبّ النشاط في جسمها مرة واحدة، إذ ما كان ضيق الوقت يسمح لها بالتمادي في ذعرها ووجلها أو حتى صرف الوقت بالفحص والبحث والتدبر والمشورة. فما هي إلاّ ساعات ثلاث وينفذ بعدها حكم الإعدام بحبيبها.

يجب أن تنقذه. أجل، يجب ألاّ يعدم، وإلا فتكون هي التي أعدمته.

قفزت إلى الهاتف في خفة النمرة، وبدأت الظروف تضع العراقيل المعهودة: عطل في الأسلاك وتلكؤ في الجواب واعتذارات ممجوجة بأن الوقت مبكر كثيراً... رمت سماعة الهاتف وقد بلغ اليأس منها كل مبلغ ووطدت العزم على أن تذهب شخصياً. وتذكرت أن السيارة بها عطل وأن إصلاحها يحتاج إلى بعض الوقت، فبادرت بارتداء ملابسها وأسرعت بمغادرة المنزل إلى المحطة.

أخذت الأنظار ترمقها في دهشة ووجوم، سواء في ذلك الشرطة الذين مرت بهم في الطرقات الخاوية أو عمال المحطة وموظفوها أو ثلة المسافرين الذين تناثروا فوق الرصيف، فقد كانت صورتها مألوفة لديهم وكانوا يعلمون جميعاً أن اليوم هو

موعد تنفيذ حكم الإعدام.

وتحرك القطار في تمام السادسة، واتخذت مكانها قرب النافذة وأخذت تعيد مطالعة الكتاب. وعلى الرغم من أنها كانت تعلم تماماً أن القطار سيصل في تمام الثامنة إلاّ أنها دأبت على النظر إلى ساعتها بين لحظة وأخرى كأنما خشيت أن تغفل عنها لحظة فيضيع الوقت. ولم يبق من معالم الثقة بنفسها سوى شيء واحد، هو أن بعض فقرات الكتاب سطرتها يد مجنون مخبول:

٦ فبراير: لقد أتممت وضع خططي وإحكامها، وكان من شأن هذا الانتخاب الفرعي أن ييسر لي الأمور ويسهلها، وإذا قدّر لي أن أنجح في هذه المرة فإنما سيكون ذلك من تهكم القدر.

١٠ فبراير: وصل وارد هذا الصباح وأحضر معه المسدس. لا يعلم أحد عنه شيئاً، والعقبة الوحيدة الباقية هي طبية محضة، وأعتقد أن الصدر سيكون أفضل من الرأس رغم أنه أكثر ألماً وأطول أمداً، ولكنه سيمنحني على الأقل دقيقة أو دقيقتين، أعد فيهما نفسي!

١١ فبراير: ذهبت ستيلا إلى المدينة اليوم وزارت وارد. لقد بعثت في إثرها من يرقب حركاتها، ولكن ما كانت هناك حاجة بتاتاً لهذه الحيطة، فإنني على يقين لا يخالطه الشك مطلقاً من أنهما بريئا النية حسنا الطوية. ووارد لن يقدم على سرقة زوجتي مني وخيانتي مهما كانت الأسباب! إنا واثق من

ذلك تماماً. إنه لن يأخذها حقاً، ولكنه يبعدها عني يوماً بعد يوم دون أن يشعر. لقد دبرت كيف يدخل الخادم فينر إلى الغرفة في اللحظة التي يكون فيها الشجار محتدماً بيني وبين وارد مما يجعل لشهادته قيمتها الكبرى.

٢١ فبراير: أشعر بأنني قد أصبحت على أبواب الجنون، فالآلام تشتد في رأسي وستيلا المسكينة في فزع دائم مني.

٢٥ فبراير: لقد تمّ إعداد كل شيء. سأتمارض يوم الانتخاب لتذهب ستيلا نيابة عني ساعة الفرز النهائي ليلاً. وطبقاً للخطة التي أحكمتها سترسل هذه المفكرة ببريد الصباح وتغادر إنجلترا يوم ٢٨ الجاري، ولن تعود إليها إلاّ بعد انتهاء كل شيء إذا سارت الأمور كما رسمت. هذا هو النجاح بعينه، وهذا هو فوزي الأخير. أشعر بروحي تسبح في الفضاء. إن الجنون يتمكن مني، وداعاً. لقد اقترب اليوم العظيم... يوم الدينونة!

* * *

-٦-

حينما بلغ القطار كريدون ابتاعت إحدى صحف الصباح، وأبصرت على صفحتها الأولى وبالخط العريض: «سيموت وارد هذا الصباح». قالت تحدث نفسها في دمدمة خافتة: كلا، لن يموت وارد هذا الصباح!

كانت الساعة قد بلغت الثامنة حين توقف القطار إزاء إفريز محطة نيوكروس، وبعد دقائق كانت تشق طريقها خلال جموع المسافرين وهي تتضرع إلى الله أن يوفقها بإحدى سيارات الأجرة في فناء المحطة. وخطر لها أن الحظ بدأ يواتيها حين أبصرت بأكثر من سيارة في الموقف، فأسرعت إلى الأولى وقالت للسائق وهي تتخذ مجلسها: لك جنيه علاوة إذا أوصلتني إلى سجن هالوي بربع ساعة! فرد السائق: هذا محال يا سيدتي، فالمسألة تستغرق عشرين دقيقة على الأقل.

- ليكن ذلك، فقط أتوسل إليك أن تسرع!

وأخذت السيارة تندفع في طرقات لندن، وخيّل لستيلا أن السيارات التي تعترض طريقها من آن لآخر، سواء في ذلك الخاصة أو العامة، إنما تفعل ذلك عن عمد وبقصد انتزاع الثواني المعدودة الباقية من عمر حبيبها. كانت الساعة قد

جاوزت النصف بعد الثامنة حين توقفت السيارة على مقربة من أبواب السجن، ورغم تجاوز السائق موعده بدقائق فقد منحته الجنيه الذي وعدته به.

واتخذت طريقها بين صفوف الجماهير التي ازدحمت بباب السجن، أو بالأصح أخذ المجتمعون يوسعون لها الطريق لعلمهم أن من يندفع إلى باب السجن في مثل هذه الساعة لا يفعل ذلك إلا لسبب هام، وحين بلغت الباب قالت لأحد الشرطيين اللذين وقفا به وهي تلهث من شدة التعب والنصب: أنا السيدة مونسيل، وقد أحضرت معي دليلاً هاماً في حقيبتي هذه وأود أن أقابل مدير السجن فوراً.

وتطلع إليها الشرطي بعض الوقت، ثم قال في هدوء دون أن تتحرك عضلة واحدة في وجهه أو يبدو عليه أي أثر لأقل اهتمام: غير مسموح بدخول أحد إلاّ لمن يحملون تصريحاً، هل معك تصريح؟

- لا، ولكنك ستسمح لي بالدخول بلا شك لمقابلة المدير فوراً. إنها مسألة حياة أو موت!

- لا دخول بغير تصريح، إنها الأوامر يا سيدتي.

- وهل تقبل بإعدام بريء لمجرد أوامرك هذه؟ يا إلهي! أتعني أنه لا يمكنني أن أقابل أحداً؟

فأجابها زميله: أجل يا سيدتي، لا دخول بغير تصريح.

وكان من شأن هذه المحاورة أن تعرّف بعض الأفراد

القريبين عليها وألموا بشخصها وسرعان ما انتشر الخبر بين الجماهير كسريان النار في الهشيم، وهبت موجة من التذمر تحمل إلى أذنيها أقسى العبارات وأعنفها، فمن قائل "إنها جديرة بأن تشنق"، إلى صائح: "هي المسؤولة الأولى عن هذه الجريمة". فلم تعبأ بهذه العبارات التي أكدت لها أن الجميع قد تحالفوا عليها وأنها لن تجد قبساً من الرحمة بين هذه الأيدي التي توشك أن تمتد إليها وتبطش بها. لم تفكر لحظة واحدة فيما يحيط بها من مظاهر العداء وأخطاره، بل كانت في شغل عنه بما منيت به من فشل في مهمتها، وقدرت أنها إذا لم تتمكن من الدخول إلى السجن ووضع ما لديها من أدلة بين يدي أحد كبار المسؤولين فكأنها لم تعثر على هذه الأدلة أصلاً، وسينفذ الحكم في وارد حتماً ولن ينقذه منه شيء.

وقفت حائرة ترى نفسها خائرة القوى معدومة الحيلة إزاء هذا التيار الجارف من الحظ العاثر، وشعرت بلفحة من الذعر تعصف في صدرها وتكاد تفقدها ما بقي من صوابها، ثم رُدّت إلى ما حولها حين شعرت بأن أحد الشرطيين يهز ذراعها، وسمعته يقول لها وسط صياح الجماهير الذي كان قد بلغ نهاية الشدة: خير لك أن تنصرفي فليس معك تصريح. هيا انصرفي، تحركي من هنا.

ودارت على عقبها واندفعت وسط الجماهير وقد أصمت أذنيها عن كل شيء، وكان آخر ما سمعته من أحد الواقفين: "إنها ليست ستيلا مونسيل، إنها امرأة مصابة بخبل وقتي كثيراً ما يطرأ عليها كلما كانت هناك قضية قتل كبرى وإعدام. أراهن

أن الزوجة لا تبالي الآن لأي شيء ما دامت قد نجت بعنقها من حبل المشنقة".

وانعطفت في أول طريق صادفها، وكان شارعاً متوسط المساحة تقوم على جانبيه عدة حوانيت متواضعة، وأبصرت بشرطي يقف في ناصية الطريق متكلفاً الجلال والوقار. أسرعت إليه وهي ترجوه من قرارة نفسها أن يكون أكثر تعقلاً وشفقة من زميليه الواقفين بباب السجن. قالت: أريد أن أقابل أحد ضباط الشرطة فوراً، معي أدلة هامة، أنا السيدة مونسيل... هل لك يا سيدي أن تذهب معي إلى أقرب نقطة شرطة؟ أتوسل إليك أن تفعل ذلك؟ لم يبق سوى دقائق معدودة، إنها الآن التاسعة إلاّ الربع!

فتطلع إليها الشرطي بازدراء ظاهر، وقال لها في لهجة جافة: أتقولين إنك السيدة مونسيل؟

- أجل، وأناشدك الله أن تسرع.

- لا يمكنني أن أغادر هذا الموقع، أما نقطة الشرطة فهناك في نهاية هذا الطريق إلى اليسار.

فأخذت تركض في الاتجاه الذي أشار إليه وقد ارتسم الفزع على وجهها، وبلغت آخر مراحل الإعياء حين لاح لها مبنى نقطة الشرطة الشاحبة، وتجلدت واستجمعت قواها لتقطع الخطوات القليلة الباقية. تعثرت وهي ترتقي الدرجات القليلة المؤدية إلى الباب فسقطت على الأرض ولكنها أسرعت

بالنهوض دون أن تأبه للأوساخ والأتربة التي علقت بمعطفها وبقية ثيابها أو للجروح التي أصابت ركبتها وساقها. اندفعت إلى حجرة الضابط المناوب وهي توشك أن تسقط إلى الأرض مرة أخرى وأخذت تنتحب وتصيح قائلة: أناشدكم الله أن تصغوا إليّ، أناشدكم الله أن تسمعوا لي، اقرؤوا هذا... إنه يثبت كل شيء. يا إلهي! أين الضابط؟

- هدئي من روعك يا سيدتي وخففي من هياجك، إن الضابط في المرور ولكن لن يطول به الغياب وسيعود بعد قليل، يمكنك الانتظار إذا شئت.

وصرخت في وجهه تقول: لا يمكنني أن أنتظر، إنها مسألة حياة أو موت، تسع دقائق لا غير... أنا السيدة مونسيل.

وكأنما سمع الشرطي اسم الشيطان، فتطلع إليها شذراً قائلاً: أتقولين إنك السيدة مونسيل؟ حقاً؟ وأمسك بذراعها في عنف وسار بها إلى الباب قائلاً: لدينا من المتاعب ما يكفينا يا سيدتي فانصرفي لحالك. ولو استمعت لنصيحتي وتريثت قليلاً لأفاد الهواء الطلق في تهدئة أعصابك الثائرة.

أدركت للتو ما يعنيه وقالت له واليأس يكاد يقتلها: إذن فقد ظننتني إحدى المعتوهات اللاتي تعصف بأعصابهن هذه القضايا الرهيبة ويتخيلن ضروب الأوهام...

وأبصرت في تلك اللحظة بالضابط مقبلاً من باب آخر

يتخذ طريقه إلى حجرته فصاحت بالشرطي قائلة: ها قد أقبل رئيسك ويجب أن أقابله فوراً، اتركني... ذراعي، يجب أن أراه. أتوسل إليك!

- هيا انصرفي، قلت لك انصرفي وأسرعي.

قالت له وقد تبدل صوتها بغتة: ألا تدعني أدخل؟ أتصر على ذلك؟ حسناً، سأرغمك على إدخالي.

هبطت الدرجات القليلة وأسرعت تجتاز الطريق إلى الجانب الآخر، وقصدت من فورها أول حانوت يواجه نقطة الشرطة، وبكل قوتها ركلت باب الحانوت بطرف حذائها فتساقط الزجاج محدثاً دوياً عظيماً وتطايرت شظاياه في كل مكان، وأصابت إحداها خدها فأحدثت به جرحاً غير يسير أخذ ينزف دماء غزيرة. ثم وقفت على الرصيف أمام الدكان تنتظر القبض عليها وقد تخضب وجهها بالدماء، وبعد لحظات كانت في غرفة الاتهام.

كانت تحيط بها ثلة من الشرطة حين وقفت أمام المحقق، وأخذت تتكلم بسرعة ولهفة ولكنه لم يستمع لها، وكان في شغل عنها يقلب صفحات السجل القديم الموضوع أمامه، ورفع يده متباطئاً فأمسك بالقلم، وكان أكثر تكاسلاً حين غمسه في المحبرة، ثم رفع رأسه وقال موجهاً الحديث للشرطة متجاهلاً المرأة الماثلة أمامه: ما رقم الحانوت؟

قال أحد رجال الشرطة: إنه ١٩٢. وأكد آخر أنه ١٩٤،

وأخذ كل منهما يعترض على الآخر ويؤكد كلامه حتى دخل صاحب المتجر نفسه وقال إن رقم الحانوت هو ١٩٦.

والتفتت فجأة إلى ساعة الحائط المعلقة في ركن الغرفة فإذا بها التاسعة إلاّ خمس دقائق، فأخرجت الكتاب من حقيبة يدها وألقت به على مكتب المحقق وهي تصيح: الكتاب، الكتاب!

ولم يأبه أحد لما تقول، وأخذت تتكلم بسرعة وحدّة وهم حولها لا يفقهون قولها، ورأتهم يتلفتون حولهم حيارى ويتطلعون إليها مبتسمين، وكلما أسرعت في الحديث وزادت حدتها استخف بهم الطرب وتحولت ابتساماتهم إلى ضحك. وعادت إلى طبيعتها وأدركت خطأها، فقد كانت تتكلم باللغة المجرية دون أن تشعر. لقد أضاعت الفرصة وفشلت في مواجهة هذا العالم العنيد، وشعرت بدوار شديد ولم تعد ساقاها تقويان على حملها وغابت عن الوجود.

كانت آثار الدوار تلازمها حينما فتحت عينيها، وبعد مجهود قليل تبينت أنها في إحدى غرف الحجز الاحتياطي في نقطة الشرطة ممددة فوق فراش خشن، وحين حاولت أن تحرك رأسها لم تسعفها قواها. سمعت دقات ساعة قريبة فأنصتت متلهفة وقلبها يردد كل دقة بمثلها. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... إنها تموت...كانت تدرك ذلك، فما كانوا يشنقون وارد في تمام الساعة التاسعة، بل كانوا يشنقونها هي! أجل، إنها تشعر بحبل المشنقة يلتف حول عنقها ويشد عليه

شيئاً فشيئاً. خمسة، ستة، سبعة، ثمانية. إن الحبل يشتد، والأرض تميد بها وتوشك أن تنفتح تحتها الهوة لتبتلعها. لقد غابت عن الوجود، ما عادت ترى شيئاً وتعطل سمعها وبصرها. لقد فارقت هذا العالم! وسمعت فجأة الدقة التاسعة... سكون طويل، سكون القبر، إنه الأبدية! ورأت شبحاً يتحرك قربها وظنته ملاكاً في بادئ الأمر، ثم سمعته يقول: "سيدتي..."، وهل هكذا يخاطب الملاك؟ وأخذت تحدق فيه النظر حتى تبينت سترة ضابط الشرطة. وسمعته يستأنف الحديث قائلاً: "سيدتي، لقد فحصت الكتاب الذي أحضرته...". وشعرت بطنين يدوي في أذنيها ولم تعد تسمع سوى كلمات متقطعة وألفاظ غير متصلة. "وخيل لي... الأفضل... الاحتياط... شخصية مسؤولة... اتصلت بسجن هالوا... ولحسن الحظ... ولحسن الحظ".

أما آخر عبارة فكانت أكثر وضوحاً في أذنيها: "أمكن تأجيل تنفيذ الحكم لإعادة النظر في الموضوع".

* * *

الشبح القاتل

-١-

كان السير إدوارد باليستر يقيم في المنزل رقم ٩ بشارع الملكة آن، وهو شارع صغير مسدود في حي وستمنستر، أشبه بواحة صغيرة هادئة في قلب لندن الصاخبة.

وكان السير إدوارد راضياً عن بيته الصغير الهادئ كل الرضا، فهو محام قديم كان -في وقت ما- أشهر محامي القضايا الجنائية في عصره، ثم اعتزل المحاماة وراح يقضي وقته في جمع الكتب والمراجع التي وُضعت عن الإجرام حتى أصبح لديه منها مكتبة ثمينة. ثم شرع في كتابة مذكراته عن أشهر المجرمين.

وذات مساء كان السير إدوارد جالساً أمام المدفأة في قاعة المكتبة وأمامه قدح قهوة وبين يديه كتاب من وضع لامبروزو، أشهر من كتب عن الإجرام والجريمة. كان يقرأ بإمعان ويهزّ رأسه بين الفينة والفينة؛ فقد عفا الدهر على نظريات لامبروزو وآرائه وظهرت نظريات جديدة قلبت علم الجريمة رأساً على عقب.

وبلغ استغراق السير إدوارد في القراءة أنه لم يشعر بخادمه آرمر حين فتح الباب وتسلل إلى الداخل في هدوء ووقف بجانبه. قال الخادم بصوت لا يكاد يسمع: بالباب سيدة شابة

تطلب مقابلتك يا سيدي.

فدُهش السير إدوارد وردد: سيدة شابة؟

لم يكن من المألوف أن يزوره أحد، فيما عدا بضعة أفراد من ذوي قرباه. كانت صلته بالناس قد انقطعت تماماً منذ اعتزال مهنة المحاماة، وخطر له أول الأمر أن الزائرة ربما كانت إيثل ابنة أخيه، ولكن آرمر يعرف إيثل جيداً. قال: ألم تذكر لك اسمها؟

- لا يا سيدي، ولكنها قالت إنها واثقة من أنك لن تمانع في استقبالها.

فقال السير إدوارد وقد ثار فضوله: دعها تدخل.

وبعد لحظات دخلت شابة في نحو الثلاثين من عمرها، ترتدي ثوباً أنيقاً وقبعة سوداء عريضة. دخلت ويدها ممدودة لمصافحة سير إدوارد وفي عينيها نظرة توحي بأنها تعرفه وأنها سعيدة بلقائه.

وانسحب الخادم في هدوء وأغلق الباب وراءه، وهتفت الفتاة قائلة: سير إدوارد، أنت تذكرني، أليس كذلك؟ أنا مجدالين فون.

وعرفها على الفور، وتذكر رحلته إلى أمريكا على ظهر الباخرة سيلوريك. لقد قابلها على تلك الباخرة. كانت -يومئذ- في نحو الثامنة عشرة من عمرها، فتاة جميلة مورّدة الخدين ممتلئة نشاطاً وحيوية، وكانت شديدة الإعجاب به؛

شأنها في ذلك شأن الذين يعبدون البطولة والأبطال.

وتذكّر كيف خلبت لبّه ببساطتها وشبابها وكيف جعلت الدم يتدفق في شرايينه وهو ابن الستين. تذكر كل ذلك في لمحة خاطفة، وأسعدته الذكرى، وعبّر عن سعادته بأن ضغط على يدها وهو يصافحها. وفي هدوء وبسرور مقرون بالوقار وضع لها مقعداً أمام المدفأة وهو يسأل نفسه: ترى ما الذي جاء بها الآن؟

وبعد تبادل العبارات المألوفة في مثل هذه الحالة ساد بينهما صمت عميق لاحظ السير إدوارد خلاله أن الفتاة تُطبِق أصابعها على حافة المقعد ثم تبسطهما بحركة عصبية. ثم فجأة بللت الفتاة شفتيها بلسانها وقالت: أريدك أن تساعدني يا سير إدوارد.

فازدادت دهشته وقال بطريقة آلية: نعم؟

فمضت في حديثها قائلة: لقد قلتَ لي على سطح الباخرة إنني إذا احتجت إلى معونة وكان في استطاعتك أن تفعل شيئاً فإنك لن تتردّد.

نعم، لقد قال هذا الكلام. قاله في لحظة الوداع قبل أن يذهب كل منهما في سبيله. ولكن هذا الكلام يقال عادة في مثل هذه الظروف دون أن يعني شيئاً ودون أن يلزم صاحبه بشيء، وخاصةً إذا كانت قد مرّت كل هذه السنين!

كم سنة مرت منذ لقائهما؟

ونظر إليها. كانت لا تزال على جانب كبير من الجمال ولكنها فقدت الشيء الذي جذبه إليها، فقدت نضارة الشباب وبراءته وحماسته واندفاعه. ربّما كان وجهها قد أصبح أكثر فتنة لرجل أصغر منه سناً وأوفر شباباً، أما هو فقد تجاوز السن التي يمكن أن يشعر فيها بدفء العاطفة كما شعر حين قابلها في الباخرة.

نظر إليها بشيء من الحذر وشاعت في وجهه تلك الصراحة التي عُرفت عنه وهو يعمل في المحاماة، وقال بسرعة: طبعاً يا فتاتي العزيزة، سوف يسعدني أن أفعل كل ما في استطاعتي، وإن كنت أشك في أنني أستطيع أن أفعل شيئاً كثيراً في هذه الأيام.

ولعله قال ذلك تمهيداً للانسحاب بلباقة، ولكن الفتاة لم تدرك غرضه. لم تكن من أولئك الذين يستطيعون التفكير في أمرين في وقت واحد، وكانت متاعبها الخاصة تستأثر بكل اهتمامها وتفكيرها، ثم إنها كانت واثقة من أن السير إدوارد لن يخيب لها رجاء.

قالت: نحن في مأزق مخيف يا سير إدوارد.

- أنتم؟ هل أنت متزوجة؟

- لا. أعني أنا وأخي، بل وويليم وإيميلي أيضاً. ولكن يجب أن أوضّح لك الأمر من بدايته. كانت لي عمة (هي الآنسة كرابتري، هل قرأتَ عنها في الصحف؟) وكانت نهايتها مؤلمة ومخيفة؛ لقد قُتلت.

فلمعت عينا السير إدوارد باهتمام وقال: آه! قُتلت منذ شهر تقريباً، أليس كذلك؟

فأطرقت الفتاة برأسها علامة الإيجاب وقالت: بل منذ أقل من شهر، وبالتحديد منذ ثلاثة أسابيع.

- نعم، أذكر أنني قرأت عن هذا الحادث. لقد قُتلت في بيتها؛ أُصيبت بضربة على الرأس قضت على حياتها ولم تستدل الشرطة على القاتل.

فتنهدت الفتاة وقالت: نعم، لم يقبضوا على القاتل وأشكّ في أنهم سيقبضون عليه في أحد الأيام، إذ من المحتمل ألا يكون له وجود. نعم، إن الموقف محير ومخيف، وقد كفت الصحف عن الكتابة عن الحادث أو الإشارة إلى أي نشاط يقوم به رجال الشرطة للقبض على القاتل، هل تعرف لماذا؟ لأن رجال الشرطة واثقون من أن أحداً لم يدخل البيت في تلك الليلة!

- تعنين...

- أعني أن الشرطة تعتقد أن القاتل هو واحد منا نحن الأربعة. ولكنهم لا يعرفون من هو، ونحن لا نعرف. إننا نجلس معاً كل يوم وينظر كل منا إلى الآخر في شكّ وتساؤل. يا الهي! كم أتمنى أن يكون القاتل من الخارج، ولكن ذلك مستحيل.

فتفرّس السير إدوارد في وجهها وقال وقد ثار فضوله

إلى أقصى حد: هل تعنين أن رجال الشرطة يرتابون في أفراد الأسرة؟

- نعم، هذا ما أعنيه. إنهم لم يصرّحوا طبعاً، وقد كانوا على جانب كبير من اللطف والأدب، ولكنهم فتشوا البيت تفتيشاً دقيقاً واستجوبونا جميعاً، بل استجوبوا خادمتنا مارتا أكثر من مرة، بيد أنهم لم يوجهوا الاتهام بعد إلى أحد، ولعلّهم يبحثون عن مزيد من القرائن والأدلة. إنني خائفة يا سير إدوارد ولا يغمض لي جفن من الخوف.

- خففي عن نفسك يا بنيّتي العزيزة، لا شك أنك تبالغين في التشاؤم.

- لا يا سير إدوارد؛ القاتل واحد منا، هذا أمر لا شك فيه.

- من هم الأربعة الذين أشرتِ إليهم؟

فاعتدلت مجدالين في جلستها في مزيد من الهدوء وقالت: أنا وأخي ماثيو، ونحن توأمان كما تعلم. ولم تكن الآنسة ليلي كرابتري عمّتنا بالضبط وإنما كانت شقيقة جدتنا، ونحن نقيم معها منذ بلغنا الرابعة عشرة من عمرنا. أما الشخصان الآخران فهما ويليم كرابتري، وهو ابن أخ الآنسة كرابتري، وزوجته إيميلي.

فقال السير إدوارد: هل كانت العمة تنفق على ويليم وزوجته إيميلي؟

- إلى حدّ ما. إن لويليم دخلاً خاصاً بسيطاً، ولكنه إنسان ضعيف البنية هادئ الطباع لا يغادر البيت إلا نادراً، ومن المستحيل أن يكون قد ارتكب الجريمة.

- ما زلت بعيداً عن فهم الموقف. هل لك أن تذكري لي الحقائق، كل الحقائق، إذا لم يكن في ذلك ما يضايقك؟

- إن كل شيء واضح في ذهني تمام الوضوح، وقد كان في نيتي أن أذكر لك الأحداث بالتفصيل. ذات يوم، منذ أربعة أسابيع، تناولنا الشاي معاً، ثم انصرف كل منا لعمل يهمه: أنا انصرفت للحياكة، وماثيو شرع في نسخ مقال على الآلة الكاتبة لإرساله إلى إحدى المجلات لأنه يشتغل بالصحافة كهواية، أما ويليم فإنه أكبّ على مجموعة من طوابع البريد لتنسيقها، وأما إيميلي فإنها لم تتناول الشاي معنا لأنها كانت تشعر بصداع شديد فتناولت بعض الأقراص المهدّئة ولزمت فراشها. وهكذا كنا جميعاً في المنزل وكلٌّ منا في شغل بأمر ما، وعندما أعدّت مارتا طعام العشاء في الساعة السابعة والنصف وذهبت لتخطر العمة ليلي بذلك وجدتها جثة هامدة ورأسها مهشّم.

قالت مجدالين الجملة الأخيرة ووضعت يدها على عينيها، كأنما لتحجب عنهما منظراً مروعاً.

قال السير إدوارد: أظن أن رجال الشرطة قد وجدوا الأداة التي ارتُكبت بها الجريمة، أليس كذلك؟

- بلى، كانت الأداة كتلة من الحديد تستخدم كثقل للأوراق، وكان مكانها دائماً على المكتب بجوار الباب. وقد

وُجدت بعض أدراج المكتب مفتوحة كما لو أن شخصاً كان يبحث فيها عن شيء. وكان أول ما تبادر إلى أذهاننا -بطبيعة الحال- هو أن لصاً قد تسلل إلى قاعة المكتب بقصد السرقة. ثم جاء رجال الشرطة وقالوا إنها ماتت منذ ساعة على الأقل، وسألوا مارتا عمّن دخل البيت فقالت: لا أحد. وأضافت أن جميع النوافذ والأبواب كانت مغلقة من الداخل. ويبدو أن القاتل لم يسرق شيئاً ولم يعبث بشيء فيما عدا الأدراج، ومن ثَمّ أسرع رجال الشرطة في إلقاء الأسئلة.

وصمتت مجدالين، وراح صدرها يعلو ويهبط بينما تعلّقت عيناها بوجه السير إدوارد وفيهما نظرة تجمع الخوف والتوسّل.

قال السير إدوارد: من الذي يستفيد من موت عمتك؟

- كلنا نستفيد من موتها، فقد أوصت بأن توزَّع ثروتها بيننا بالتساوي.

- بكم تقدَّر الثروة؟

- قال محاميها إن ثروتها تقدّر بثمانين ألفاً من الجنيهات بعد سداد ضريبة التركات.

ففتح السير إدوارد عينيه في دهشة وقال: إنها ثروة ضخمة! هل كنتم تعرفون قيمتها؟

فهزّت مجدالين رأسها سلباً وأجابت: لا، كان كلام المحامي مفاجأة لنا، ذلك أن العمة ليلي كانت شديدة الحرص

والتقتير وكانت تحض خادماتنا على الاقتصاد.

فأطرق السير إدوارد برأسه مفكراً، وانحنت مجدالين إلى الأمام وقال متوسلة: إنك ستساعدني يا سير إدوارد، أليس كذلك؟

ومن حسن حظها أن قصتها أثارت فضوله، لكنه قال: وماذا في استطاعتي أن أفعل يا سيدتي العزيزة؟ إذا كنت تنشدين مشورة رجل قانون فإني على استعداد لأن أدلك على...

ولكنها قاطعته بقولها: لا، لا أريد مشورة أحد. أريدك أنت أن تساعدني شخصياً، كصديق.

- ولكن يا سيدتي العزيزة!

- تذكّرْ أنك وعدت بأن تساعدني في أي شيء، وفي أي زمان ومكان.

ونظرت إليه بعينين تفيضان بالثقة والتوسل، فشعر بخجل وتأثّر غريبين. أثّر فيه صدقها وصراحتها وإيمانها المطلق في إخلاصها للوعد العابر الذي تفوه به منذ عشرة أعوام. ولكن ما أكثر الرجال الذين ينطقون بمثل هذا الوعد، وربما بنفس الصيغة والألفاظ! تُرى كم منهم طُلب منه أن يفي بوعده؟

قال في شيء من التخاذل: أنا واثق من أن هناك كثيرين يستطيعون مساعدتك أفضل مني.

فأجابت: إن لي أصدقاء عديدين ولكن ليس بينهم من

يضارعك في البراعة. لقد تعوّدتَ أن تسأل الناس وتلقي الضوء على القضايا الغامضة، ومن كانت له مثل خبرتك وتجاربك يستطيع أن يعرف بسهولة.

- يعرف ماذا؟

- يعرف المذنبين من الأبرياء.

فلم يتمالك نفسه من الابتسام بشيء من الخيلاء. نعم؛ إنه يغبط نفسه لأنه كان يعرف دائماً، رغم أن وجهات نظره لم تكن تتّفق دائماً مع وجهات نظر المحلفين.

ودفعت مجدالين قبعتها إلى الوراء بحركة عصبية وأجالت الطرف حولها وقالت: ما أشد الهدوء هنا! ألا تتوق إلى بعض الضوضاء أحياناً؟

ومسّت هذه الكلمات التي نطقت بها المرأة الشابة جزافاً شيئاً في أعماقه. نعم، إنه يعيش في شارع مسدود بعيداً عن الضوضاء والناس، ولكنه يستطيع دائماً أن يخرج إلى الدنيا من جديد من نفس الطريق الذي دخل منه. وأحسّ فجأة بنشاط وحماسة الشباب. إن ثقتها العمياء فيه قد مسّت أجمل ما في نفسه، ومشكلتها الغريبة قد أثارت فيه فضول العالِم الذي يبحث عن الحقيقة. وشعر بحاجته إلى مقابلة الأشخاص الذين تحدّثت عنهم الزائرة الشابة لكي يحكم عليهم بنفسه.

وأخيراً قال: إذا كنت واثقة حقاً من أنني أستطيع أن أفيدك فإنني أضع نفسي في خدمتك، إنما يجب أن تعلمي

أنني لا أعدك بشيء ولا أضمن شيئاً.

وتوقع أن تقفز الزائرة فرحاً، ولكنها تقبلت موافقته في هدوء تام. قالت: أعلم أنك ستساعدني، لقد كنتُ دائماً أفكر فيك كصديق وفيّ. هل ستأتي معي الآن؟

- لا؛ أعتقد أنه من الأفضل أن أزورك غداً. هل لك أن تذكري لي اسم محامي عمتك وعنوانه؟ قد أجد من الضروري أن أُلقي عليه بضعة أسئلة.

فكتبت الاسم والعنوان على ورقة قدمتها إليه، وقالت: أشكرك كثيراً يا سير إدوارد، وإلى اللقاء غداً.

- وعنوانك؟

- يا إلهي، ما أشدّ غبائي! العنوان هو رقم ١٨ بشارع بالاتاين في تشلسي.

-٢-

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي عندما اقترب السير إدوارد باليستر من المبنى رقم ١٨ بشارع بالاتاين وهو يمشي الهُوينا.

ولم تكن هذه أولى خطواته في القضية، فقد ذهب في الصباح إلى إدارة اسكتلنديارد وقابل هناك صديقاً قديماً يشغل منصب مساعد المدير. ثم قابل بعد ذلك محامي الآنسة

ليلى كرابتري ووقف منه على بعض المعلومات التي ساعدته على أن يرى الأمور بمزيد من الوضوح. ولعلّ من الحقائق العجيبة التي ذكرها المحامي عن الآنسة كرابتري أنها لم تكن تستخدم دفاتر الشيكات في معاملاتها، وأنها كانت تكتب إلى المحامي خطاباً تطلب فيه أن يعد لها مبلغاً من المال من أوراق النقد فئة الخمسة جنيهات ثم تذهب إليه بنفسها لتتسلمه. كانت تطلب دائماً المبلغ نفسه: ثلاثمئة من الجنيهات، أربع مرات كل عام؛ أي ألفاً ومئتَي جنيه على أربعة أقساط.

وفي اسكتلنديارد علم السير إدوارد أن الناحية المالية كانت موضع اهتمام القائمين بتحقيق القضية، وأن موعد حصول الآنسة كرابتري على القسط التالي من الأقساط الأربعة كان قد اقترب، ومعنى ذلك أنها أنفقت القسط الأخير كله أو أغلبه. ولكن كم أنفقت من هذا القسط الأخير وكم تبقّى؟ ذلك ما لم يستطع المحقق أن يقطع فيه برأي؛ لأن مراجعة مصروفات البيت دلّت -بما لا يدع مجالاً للشك- على أن الآنسة كرابتري كانت تنفق مبلغاً أقلّ كثيراً من الثلاثمئة جنيه التي تأخذها كل ثلاثة شهور.

ولكن المحقّق علم -من ناحية أخرى- أن الآنسة كرابتري قد تعوّدت أن ترسل إلى المحتاجين من أصدقائها وأقاربها أوراق نقد من فئة الخمسة جنيهات على سبيل المساعدة. فكم بقي لديها من القسط الأخير بعد النفقات والمساعدات؟ ذلك ما لا يعلمه أحد. الشيء المؤكّد الوحيد أن البيت كان خالياً تماماً من النقود عند موتها. وتلك هي النقطة التي كان السير

إدوارد يفكّر فيها وهو يقترب من البيت.

دقّ الباب ففتحته امرأة متقدمة في السن، ذكية النظرات، سريعة الحركة، وقادته إلى غرفة فسيحة لم تلبث مجدالين أن وافته إليها.

كانت دلائل التوتر العصبي أوضح في وجهها مما كانت في اليوم السابق. وقال السير إدوارد وهو يشد على يدها ويبتسم: لقد طلبت مني أن ألقي بعض الأسئلة وها أنذا قد جئت. أريد الآن أن أعرف من كان آخر شخص رأى عمتك على قيد الحياة، ومتى كان ذلك؟

- لقد تناولنا الشاي في الساعة الخامسة، وكانت مارتا آخر شخص رآها على قيد الحياة لأنها ابتاعت لها بعض الكتب وذهبت إليها لتعطيها ما تبقّى من النقود.

- هل تثقين في مارتا؟

- كل الثقة؛ لقد قضت في خدمة عمتي ثلاثين عاماً، وكانت دائماً مثال الإخلاص والأمانة.

فأطرق السير إدوارد برأسه قليلاً ثم قال: سؤال آخر، لماذا تناولت إيميلي عقاراً مهدئاً؟

- لأنها كانت تشعر بصداع.

- طبعاً، طبعاً، ولكن هل كان هناك سبب خاص للصداع؟

- نعم، فقد قامت مشادة بينها وبين العمة أثناء تناول طعام الغداء. إن إيميلي عصبية سريعة الانفعال، والخلاف بينها وبين العمة ليلي أمر مألوف.

- وهكذا قام خلاف بينهما في أثناء تناول الغداء؟

- نعم. كانت العمة ليلي تهتم بالتوافه، وقد بدأ الخلاف من لا شيء ثم تطور واحتدم، وقالت إيميلي كلاماً لا تعنيه حقاً ولا يمكن أن تعنيه. قالت إنها ستغادر البيت ولن تعود إليه أبداً وإن العمة ليلى تحقد عليها من أجل كل كلمة تقولها... وكلاماً كثيراً سخيفاً آخر. فقالت العمة ليلي: خير البرّ عاجله، ولو عجّلت هي وزوجها بالرحيل لكان ذلك أفضل. ولكن كل هذا الكلام من الجانبين لم يكن له -في الواقع- أي معنى أو نتيجة.

- هل ذلك لأن إيميلي وزوجها لا يملكان المال الكافي للرحيل والإقامة وحدهما في بيت خاص؟

- ليس ذلك فقط، وإنما لأن ويليم كان يحب العمة ولا يفكر في الابتعاد عنها.

- ألم تحدث مشاجرات أخرى في ذلك اليوم؟

فاحمرّ وجه مجدالين وقالت: هل تعنيني بذلك؟ هل تعني الضجة التي ثارت بسبب رغبتي في أن أعمل عارضة أزياء؟

- هل كانت عمتك تعارض هذه الرغبة؟

- نعم.

- ولماذا أردت أن تعملي عارضة أزياء يا آنسة مجدالين؟ هل تروقك حياة عارضات الأزياء؟

- لا، ولكن أي شيء أفضل من حياة الخمول هنا.

- كان ذلك رأيك قبل وفاة عمتك، أما الآن فإنك أصبحت ذات إيراد كبير خاص بك.

- نعم، الموقف تغير الآن.

قالت ذلك بكل بساطة. وابتسم السير إدوارد ولكنه لم يستمر في مناقشة هذا الموضوع وإنما قال: وأخوك؟ هل تشاجر كذلك مع العمة؟

- ماثيو؟ لا.

- هل أفهم من ذلك أن أحداً لا يستطيع أن يزعم أن لماثيو مصلحة خاصة في موت العمة؟

فخفقت أهداب مجدالين بسرعة، ولاحظ السير إدوارد ذلك فاستطرد: يقال أن أخاك مثقل بالديون، فهل هذا صحيح؟

- نعم، للأسف.

- على كل حال فإن متاعبه قد انتهت الآن.

فتنهدت وقالت: نعم، وهذا أمر يدعو إلى الارتياح.

قالت ذلك أيضاً ببساطة دون أن تفطن إلى أن هذه الأقوال من شأنها أن تدعم الشكوك التي تحوم حولها وحول أخيها. ولم يعقّب السير إدوارد على إجابتها بل قال بسرعة: هل الجميع في البيت الآن؟

- نعم، لقد أنبأتهم بأنك ستحضر وهم على استعداد للتعاون معك بغير حدود. أوه يا سير إدوارد، قلبي يحدّثني بأنك ستجد كل شيء على ما يرام وأن لا أحد منا له ضلع فيما حدث وأن القاتل شخص من الخارج.

فقال: أنا لا أصنع المعجزات. قد أستطيع أن أعرف الحقيقة ولكني لا أستطيع أن أجعل الحقيقة تلائم رغباتك.

- لا تستطيع؟ يخيل إليّ أنك تستطيع عمل أي شيء.

قالت ذلك وغادرت الغرفة، وشيّعها السير إدوارد ببصره وهو يشعر ببعض الانزعاج. قال يحدث نفسه: ماذا تعني بهذا الكلام؟ هل تريدني أن أنقذ شخصاً ما من تبعات جريمته؟ ومن هو هذا الشخص؟

وقطع عليه حبلَ تفكيره دخولُ رجل يناهز الخمسين من عمره، قويّ البنية يعرج في مشيته قليلاً ولا يدلّ مظهره على أنه يعتني بهندامه كثيراً. وهتف الرجل حالما رآه: سير إدوارد باليستر؟ لقد أرسلتني مجدالين إليك. إنه لكرم منك أن تأتي لمساعدتنا، ولكني واثق من أن جميع الجهود ستذهب سدى وأن الشرطة لن يقبضوا على القاتل.

- هل تعتقد أن القاتل لص جاء من الخارج؟

- هذه الجريمة لم يرتكبها أحد من أفراد الأسرة، أنا واثق من ذلك. إن اللصوص قد برعوا في هذه الأيام، إنهم يدخلون البيوت ويخرجون منها كما يريدون.

- أين كنت وقت حدوث المأساة يا سيد كرابتري؟

- كنت في غرفتي بالطابق الأول، أنسّق مجموعتي من طوابع البريد.

- ألم تسمع شيئاً؟

- لا، إنني عادة لا أسمع شيئاً حين أكون مشغولاً بأمر ما. وهذا خطأ، ولكن ما حيلتي؟ لقد طُبعت على ذلك.

- هل تقع غرفتك فوق هذه الغرفة؟

- لا؛ إنها في الجناح الخلفي.

وفُتح الباب مرة أخرى ودخلت سيدة شقراء صغيرة الحجم. كانت تقبض أصابعها وتبسطها بطريقة عصبية وكان يبدو على وجهها دلائل الخوف والجزع. قالت تحدث كرابتري: لماذا لم تنتظرني يا ويليم؟ ألم أطلب منك أن تنتظرني لكي نحضر معاً؟

- أنا آسف يا عزيزتي، لقد نسيت.

ثم التفت إلى السير إدوارد وقال: هذه زوجتي إيميلي.

- كيف أنت يا سيدة كرابتري؟ أرجو ألا يضايقك أن ألقي عليكم بعض الأسئلة، إنني أعرف مدى قلقكم ورغبتكم

في كشف الحقيقة.

- هذا طبيعي، ولكني لا أستطيع أن أفيدك بشيء، أليس كذلك يا ويليم؟ لقد كنت نائمة في فراشي ولم أستيقظ إلا حينما صرخت مارتا.

- أين تقع غرفتك يا سيدة كرابتري؟

- فوق هذه الغرفة، ولكني لم أسمع شيئاً. كيف يمكنني أن أسمع وأنا نائمة؟

ولم يظفر منها بأكثر من هذا. قالت إنها لا تعرف شيئاً ولم تسمع شيئاً وإنها كانت نائمة. وكررت هذا الكلام وأصرت عليه، وأحس السير إدوارد بأنها لم تذكر إلا الحقيقة.

ثم عبّر عن رغبته في إلقاء بضعة أسئلة على الخادمة مارتا، فتطوّع ويليم كرابتري لمرافقته إلى المطبخ. وفي الردهة كاد السير إدوارد أن يصطدم بشاب طويل القامة كان يهرول مسرعاً في طريقه إلى الباب الرئيسي.

قال السير إدوارد يحدثه: ألست السيد ماثيو فون؟

- نعم، ولكني لا أستطيع الانتظار لأنني على موعد مع أحد الأشخاص.

وسمعته مجدالين وهي تهبط الدرج فصاحت تعاتبه: ماثيو! لقد وعدتَ بأن...

فقاطعها قائلاً بسرعة: نعم يا أختاه، ولكني لا أستطيع

البقاء لأني على موعد. ثم ما الفائدة من الكلام وتكراره في هذا الموضوع المزعج؟ ألم تكفنا مضايقات الشرطة؟ الحق أنني قد سئمت هذا كله.

قال ذلك وخرج، وصفق الباب وراءه بشدة.

وذهب السير إدوارد إلى المطبخ حيث كانت مارتا تكوي بعض الملابس، فلما أبصرته كفت عن العمل ورفعت المكواة في يدها وتفرّست فيه. وأغلق السير إدوارد الباب وقال: لقد طلبت الآنسة مجدالين معونتي، فهل لديك مانع من أن ألقي عليك بعض الأسئلة؟

فهزت المرأة رأسها وقالت: لا أحد منهم ارتكب هذه الجريمة يا سيدي. أنا أعرف ما يدور بخلدك ولكنك مخطئ، هؤلاء القوم -رجالاً ونساء- من أكرم الناس وأنبلهم خلقاً.

- ليس لدي شك في ذلك، ولكن كرمهم ونبلهم لا يعتبران دليلاً.

- ربما! إن القانون شيء مضحك حقاً، ولكن هاك الدليل الذي تتحدث عنه يا سيدي. إن أحداً منهم لم يكن في استطاعته ارتكاب الجريمة دون أن أعلم.

فنظر إليها في دهشة، فقالت: أنا أعرف ما أقول يا سيدي، أصغِ.

ورفعت إصبعها وأنصتت. كانت تنصت إلى صوت صادر من فوق رأسها، ثم قالت: هذا الصوت صادر من الدرج يا

سيدي. كلما صعد أحد أو هبط انبعث هذا الصرير من الدرج، ومهما حرصتَ على الهبوط والصعود في هدوء وحذر فإن الصرير لا مفرّ منه. لقد كانت إيميلي كرابتري في فراشها، وكان زوجها يلهو بطوابعه اللعينة، بينما كانت الآنسة مجدالين تعمل على آلة الخياطة. ولو هبط أحد هؤلاء الثلاثة على الدرج لعرفت على الفور.

كانت تتحدث عن ثقة ويقين فاقتنع المحامي وقال لنفسه: هذه شاهدة صادقة وكلامها له وزنه.

ثم قال لها: لعل أحدهم هبط الدرج دون أن تلاحظي.

- مستحيل، إنني أعرف دون أن ألاحظ، تماماً كما تسمع باباً يغلق فتدرك أن شخصاً خرج.

- لقد تحدّثتِ عن ثلاثة أشخاص، ولكن هناك رابع، فهل كان السيد ماثيو فون في الطابق الأول أيضاً؟

- لا، كان في الطابق الأرضي في الغرفة الصغيرة المجاورة، وكان يكتب على الآلة الكاتبة. إن صوتها يُسمَع واضحاً من هنا، وأستطيع أن أقسم أنه لم يكفّ عن الكتابة لأن صوت الآلة اللعينة لم ينقطع لحظة واحدة.

فتريث سير إدوارد لحظة ثم سأل: هل أنت التي اكتشفت الحادث؟

- نعم يا سيدي. كانت ممدّدة على الأرض وشعرها ملوّث بالدم، ولم يسمع أحد شيئاً بسبب جَلَبة الشارع.

- هل أنت واثقة من أن أحداً لم يحضر إلى البيت؟

- كيف يحضر إنسان دون علمي؟ إن للبيت باباً واحداً، وجرس الباب يرنّ هنا في المطبخ، فلو جاء زائر وضغط الزرّ فإن الجرس يرنّ هنا.

فقال وهو ينظر في عينيها: هل كنت تحبين الآنسة إيميلي كرابتري؟

فلمعت عيناها على الفور وقالت وفي صوتها نبرة صدق وإخلاص لا تخطئها الأذن: نعم يا سيدي، كنت أحبها كثيراً. ولا بأس من أن أصارحك ببعض الحقائق التي لا يخجلني الآن أن أذكرها بعد أن طعنت في السن. لقد ارتكبت هفوة ووقعت في ورطة وأنا فتاة، ولولا الآنسة ليلي لساء مصيري. لقد فتحت لي صدرها وأعادتني إلى العمل في هذا البيت بعد أن طُردت منه، لقد كنت على استعداد لأن أفتديها بحياتي.

- هل أفهم من ذلك أن أحداً لم يدخل من الباب؟

- نعم يا سيدي.

- ولكن هبي أن الآنسة ليلي كانت تنتظر قدوم شخص ما وأنها فتحت له الباب بنفسها؟

فوجمت المرأة ولم تجد جواباً، وقال سير إدوارد: ذلك ممكن، أليس كذلك؟

- بلى، ممكن، ولكنه غير مألوف. أعني...

ولاحظ السير إدوارد وجومها وترددها وأنها تحاول أن تنفي احتمال دخول أحد دون علمها. ولكن لماذا؟ هل لأنها تعلم أن القاتل لم يأتِ من الخارج وأنه أحد الأشخاص الأربعة؟ هل سمعَت صرير الدرج وأدركت هذه الحقيقة ولكنها تريد التستّر على أفراد الأسرة؟ وأيّ الأفراد الأربعة هو القاتل؟

قال دون أن يحوّل عينيه عن وجهها: كان في وسع الآنسة ليلي أن تفعل ذلك بطبيعة الحال، أعني أن تفتح الباب بنفسها لشخص تنتظر قدومه. إن نافذة غرفة المكتب تطل على الشارع، ومن المحتمل أن تكون الآنسة ليلي قد لمحت ذلك الشخص حين مرّ أمام النافذة في طريقه إلى الباب فخرجت إلى البهو وفتحت له الباب. ومن المحتمل أيضاً أنها لم تشأ أن يرى أحد ذلك الشخص، أليس كذلك؟

راقتها الفكرة فردّدت: نعم، ربما كنت على صواب.

- هل كنت آخر من رآها على قيد الحياة؟

- نعم. بعد أن حملت أدوات الشاي ذهبت إليها بالكتب التي طلبت مني شراءها وبباقي النقود التي أعطتني إياها.

- هل أعطتك أوراق نقد فئة خمسة جنيهات؟

- أعطتني ورقة واحدة فئة الخمسة جنيهات لأن ثمن الكتب لم يكن يتجاوز هذا المبلغ.

- أين كانت تضع النقود؟

- لا أعلم على وجه التحديد يا سيدي. أكبر الظن أنها كانت تضعها في حقيبة مصنوعة من القطيفة السوداء تحملها معها، ولكن من المحتمل أيضاً أنها كانت تضعها في دُرج بمكتبها أو في غرفتها وتحتفظ بمفتاحه معها. لقد كانت شغوفة بالاحتفاظ بالمفاتيح رغم أنها كثيراً ما كانت تفقدها.

- ألا تعرفين كم كان عندها من النقود، أعني من أوراق النقد فئة الخمسة جنيهات؟

- لا يا سيدي.

- هل أنت واثقة؟ ماذا قالت لك بالتحديد؟

ففكرت مارتا قليلاً ثم أجابت: قالت إن الجزّار لص وغشاش وإنني استهلكت ربع رطل من الشاي أكثر من اللازم، وقالت إنه من السخف أن ترفض السيدة إيميلي الطعام المطهوّ بالسمن النباتي، ثم أبدت اعتراضها على قطعة نقد جديدة من فئة ستة بنسات كنت قد أخذتها من المكتبة ضمن النقود المتبقية من ثمن الكتب، قالت إنها لم ترَ هذه القطعة الجديدة ولا تعترف بها، وقد وجدت صعوبة شديدة في إقناعها بقبولها. ذلك كل ما حدث في لقائنا الأخير يا سيدي.

ومن هذه العبارات البسيطة الموجزة عرف السير إدوارد عن أخلاق المرأة القتيلة وطباعها وأسلوب حياتها ما يقصر الوصف المسهب عن الإلمام به. قال: يبدو أنها كانت سيدة صعبة المراس.

- كانت تهتم بالتوافه، ولعل السبب أن المسكينة لم تكن

تخرج إلا نادراً، فكانت بحاجة إلى ما تشغل به نفسها. ولكنها كانت طيبة القلب إلى أبعد الحدود ولم يحدث قط أنها ردّت سائلاً عن بابها دون أن تعطيه شيئاً. صحيح أنها كانت دقيقة في معاملاتها ولكنها كانت محسنة كريمة.

- يسرني أن أعلم أنها تركت شخصاً واحداً على الأقلّ يأسف على موتها.

ففتحت الخادمة عينيها في دهشة واستنكار وهتفت قائلة: هل تعني أن... ولكن لا، لقد كان الجميع في قرارة نفوسهم يحبونها من كل قلوبهم. صحيح أنهم كانوا يختلفون معها أحياناً، ولكنها كانت خلافات سطحية على أمور لا أهمية لها.

فسمع السير إدوارد في تلك اللحظة صرير الدّرج فرفع رأسه، وقالت مارتا: هذه الآنسة مجدالين تهبط السلم.

- كيف عرفت؟

فاحمرّ وجهها وغمغمت: إنني أعرف وقع قدميها.

فغادر السير إدوارد المطبخ مسرعاً ووصل إلى أسفل الدرج في الوقت المناسب ليرى مجدالين وهي تهبط. لقد كانت الخادمة العجوز على صواب! ونظرت مجدالين إلى المحامي الشيخ وفي عينيها أمل ورجاء، فردّ على نظرتها بقوله: لم نتقدم كثيراً بعد، هل تعلمين ما إذا كانت عمتك تسلمت رسائل في يوم وفاتها؟

- إن كل رسائلها موجودة في مكان واحد، وقد اطّلع عليها رجال الشرطة بطبيعة الحال.

وقادته إلى غرفة المكتب وفتحت دُرجاً وأخرجت منه حقيبة من القطيفة السوداء قدّمتها إليه قائلة: هذه حقيبة عمتي وفيها كل شيء كما تركَته يوم وفاتها، وقد حرصت على ألا يمسّها أحد.

فشكرها وأفرغ محتويات الحقيبة على سطح المكتب. كانت المحتويات نموذجاً لما يوجد في حقيبة سيدة متقدمة في السن غريبة الأطوار؛ فهي تتضمن بعض قطع النقود الفضية القديمة وحبتَي بندق وثلاث قصاصات من الصحف عن كتاب جديد للتدبير المنزلي، وقصيدة شعرية عن البطالة وثلاث رسائل، الأولى تحمل توقيع «ابنة العم لوسي» والثانية تتضمن فاتورة إصلاح ساعة والثالثة من إحدى المؤسسات الخيرية.

فحص السير إدوارد المحتويات بعناية تامة، ثم أعادها إلى الحقيبة وإلى مجدالين وهو يتنهد وقال: شكراً لك يا آنسة مجدالين، فليس في محتويات الحقيبة ما يفيدنا كثيراً.

ونهض واقفاً، وتحقّق من أن النافذة تطل على الشارع بحيث يستطيع الجالس في الغرفة أن يرى المارّة. ثم تناول يد مجدالين بين يديه فهتفت قائلة: أذاهب الآن؟

- نعم.

- ولكن هل ترى أن كل شيء على ما يرام؟

فأجاب ببطء وهدوء: لا يوجد رجل قانون يحترم نفسه يرضى بأن يدلي بإجابة عفوية رداً على سؤّال كهذا.

قال ذلك وشدّ على يدها ولاذ بالفرار.

-٣-

سار في الطريق ببطء وهو مستغرق في التفكير. ها هو اللغز أمامه، يتحدّاه ويتحدى ذكاءه وخبرته، وهو لا يجد له حلاً. كان يشعر بأنه بحاجة إلى مؤشّر بسيط يهديه إلى الطريق.

وفجأة شعر بيد توضع على كتفه، ورأى ماثيو يسير معه جنباً إلى جنب وهو يلهث. قال الشاب: إنني أطاردك منذ بضع دقائق يا سير إدوارد لكي أعتذر لك عمّا بدر مني من غلطة وجفاء، والواقع أنني أعاني هذه الأيام من ضيق الصدر وتوتّر الأعصاب للأسباب التي تعرفها. لقد كان كرماً منك أن تهتم بهذه القضية، وها أنذا على استعداد لأن أجيبك على أي سؤال تلقيه، وإذا كان هناك ما أستطيع عمله فإنني...

ولم يتم عبارته، فقد رفع السير إدوارد رأسه بغتة وتعلّقت عيناه بشيء في الجانب الآخر من الشارع.

وكرّر الشاب عبارته: إذا كان هناك ما أستطيع عمله فإنني...

فقاطعه السير إدوارد قائلاً: لقد عملت ما تستطيع فعلاً حين استوقفتني في هذا المكان بالذات، مما لفت نظري إلى شيء ما كنت سألاحظه لو أنني مضيت في طريقي.

وأشار إلى لافتة في الجانب الآخر من الشارع، فقرأ ماثيو ما كتب على اللافتة «مطعم البنسات الستة»، ثم أضاف: هذا مطعم صغير يبيع الشطائر. إن اسمه غريب ولكنه يبيع شطائر شهية، هل تريد أن تجربه؟

- شكراً لك. أنا لست في سن تسمح لي بتجربة أطعمة جديدة.

قال ذلك ودار على عقبيه بسرعة، فصاح ماثيو: إلى أين أنت ذاهب؟

- سأعود إلى بيتك يا صديقي.

ولم يَدُرْ بينهما حديث طوال الطريق رغم نظرات التساؤل التي كان ماثيو يرنو بها إلى السير إدوارد.

وقصد السير إدوارد إلى غرفة المكتب مباشرة، ففتح أحد الأدراج وأخرج الحقيبة السوداء، ثم نظر إلى ماثيو نظرة لها معناها فغادر الشاب الغرفة على كُره منه. وحينئذ أفرغ السير إدوارد محتويات الحقيبة على المكتب وبحث عن شيء، وأبرقت أساريره... نعم، إن ذاكرته لم تخنه.

ثم وضع شيئاً في جيبه ورنّ الجرس، فأقبلت مارتا. قال لها: أذكر أنك قلتِ لي إن مناقشة دارت بينك وبين سيدتك

بشأن قطعة نقود جديدة من فئة الستة بنسات.

- نعم يا سيدي.

- الأمر العجيب يا مارتا هو أنني لم أجد هذه القطعة في الحقيبة. وجدت قطعتين قديمتين من فئة الستة بنسات ولكن لا أثر للقطعة الجديدة.

فنظرت إليه بحيرة، فقال: هل فهمت ما أعني؟ لقد جاء أحد الأشخاص في ذلك المساء فأعطته سيدتك قطعة النقود الجديدة، وأظنّ أنها أعطته إياها ثمناً لهذه.

وبحركة سريعة أخرج من جيبه ورقة طُبعت عليها قصيدة شعرية عن البطالة. كانت هذه الورقة بين محتويات الحقيبة، وكان العمال العاطلون يستخدمونها لاستدرار عطف المحسنين وللحصول على معونة. وكانت نظرة واحدة إلى وجه مارتا كافية لإقناع السير إدوارد باليستر بأنه قد أصاب الهدف.

قال بسرعة: ها أنت ترين أنني قد عرفت كلّ شيء، فصارحيني بالحقيقة يا مارتا.

فتهالكت على أحد المقاعد وسالت الدموع من عينيها. قالت: نعم، نعم. إن رنين الجرس لم يكن واضحاً، فتردّدت، وبعد قليل قررت أن أذهب لأرى إذا كان هناك من رنّ الجرس حقاً. وعندما مررت بقاعة المكتب، وكان بابها مفتوحاً، رأيت شبحاً يهوي على رأسها بشيء ما ورأيتها تسقط، وكان أمامها

على المكتب رزمة من أوراق النقد من فئة الخمسة جنيهات. ولعل وجود هذه الرزمة هو ما أغراه بقتلها، ولعله ظن حينما فتحت له الباب بنفسها أنها وحدها في البيت. ولم أقوَ على الاستغاثة، فقد أصابني الذعر بالشلل. وعندما استدار ورأيت وجهه عرفت أنه ابني. لقد كان منحرفاً منذ طفولته وكنت أعطيه كل ما أحصل عليه من أجور، ويبدو أنه جاء لمقابلتي، فلما أبطأت في فتح الباب ذهبت الآنسة كرابتري وفتحته بنفسها، ولعله بُهت حين رآها فبحث عن سبب يبرر به إقدامه على رنّ جرس الباب فلم يجد خيراً من أن يقدم لها هذه الورقة. ولما كانت شديدة العطف على الفقراء فأكبر الظنّ أنها سمحت له بالدخول لتعطيه قطعة نقود الستة بنسات. وكانت رزمة الأوراق المالية على المكتب طول الوقت منذ أن أعطيت الآنسة كرابتري ما تبقى من ثمن الكتب، فوسوس إليه الشيطان أن يصرعها ليأخذ النقود.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- ماذا كان بوسعي أن أفعل يا سيدي؟ إنه من لحمي ودمي. كان أبوه رجلاً شريراً فسار على نهج أبيه، ولكنه ابني على كل حال. أخرجته من البيت في هدوء وعدت إلى المطبخ وأعددت طعام العشاء كالمعتاد، فهل تراني قد ارتكبت وزراً يا سيدي؟ لقد حاولت ألا أقول كذباً حينما سألتني.

فقال السير إدوارد بصوت متهدج وقد غلبه التأثر: إنني أرثي لك أيتها المرأة المسكينة، ولكن العدالة يجب أن تأخذ مجراها كما تعلمين. وأين هو ابنك الآن؟

- لقد غادر البلاد يا سيدي ولا أعرف أين هو الآن.

- إذن فإن لديه فرصة للإفلات من المشنقة، ولكن لا ينبغي أن تعقدي على ذلك أملاً كبيراً. والآن هل لك أن ترسلي الآنسة مجدالين لمقابلتي؟

وسمعت مجدالين الحقائق كما رواها لها بإيجاز، فصاحت وهي تكاد تطير من الفرح: ما أروعك يا سير إدوارد! ما أروعك! لقد أنقذتنا جميعاً، فكيف أستطيع أن أشكرك؟

فابتسم السير إدوارد وقال وهو يربّت على يدها: إذا احتجت إلى مساعدة مرة أخرى فاذهبي إلى محام.

- بل سأحضر إليك مباشرة.

فصاح في ذعر: لا، لا. ذلك ما لا أريدك أن تفعليه! إذا احتجت إلى مساعدة مرة أخرى فاذهبي إلى محام أصغر مني سناً.

* * *